

831.1 (534)
TAQ
Reserve

نبذة

من ديوان المرحوم

﴿ سليم بك تقلا ﴾

(مؤسس جريدة الاهرام)

(طبعت بمطبعة الاهرام بالاسكندرية سنة ١٨٩٣)

بسم الله الفتاح

اما بعدُ فهذه نبذة من ديوان فقيدنا المرحوم سليم بك تقلا جمعنا بها كل ما وقفنا عليه من منظوماته واقواله وقصائد رثاه واكتهاله نقدمها هدية لحضرات القراء كتذكار للفقيد ان احوجهم بعد جريدته تذكار واثراً يدلُّ على فضله واجتهاده وكم دلت على الفضل آثار حتى نوفي بذلك ما قدمناه لحضراتهم من الوعود واسلفناه لهم من العهود والله نسأل ان يدرَّ على الفقيد شآبيب رحمته وغفرانه ويسكنهُ فسيح فردوسه وجنانه بمنه ووافر احسانه

﴿ صفات الفقيد ﴾

(بقلم الكاتب الاديب نجيب افندي الحداد)

هو سليم بن خليل بن ابرهيم تقلا ولد في كفرشيما قرية في سفح لبنان على بعد ساعتين من بيروت عام ١٨٤٩ ثم تنقل في المدارس بين بيروت ولبنان مدة كما هو مذكور ببعض التفصيل في ترجمته المدرجة في صدر مراثيه واقوال الجرائد فيه مما لم اجد حاجة الى اعادة ذكره في هذا المقام الذي وقفته لبيان احواله وخلاله وما كان عليه من الطباع والاخلاق والصفات نقلاً عما علمته عنه ورايته منه في طول عشرتي له وخدمتي اياه مدة لا تقل عن ثماني سنوات في تحرير جريدته الاهرام الغراء بحيث كنت انطق بما شهدت لا بما اردت واورد الذي رويت على مثل ما رايت ولا غرو فالامر من قبيل التاريخ الذي يستلزم الصدق والرواية عن ميت فقيد ولا يليق في حق الميت غير طريق الحق

كان الفقيد رحمه الله ربعة القوام سمين الجسم اسمر اللون اسود الشعر والعينين دقيق العارضين متين البنية قوي الاعضاء مهيب المنظر محبوب الطلعة خفيف الروح حلو الفكاهة والحديث اذا قال فاق القائلين واسكت الناطقين واستلفت الابصار واسترعى الاسماع والافهام كأنما هو في موقف خطابةٍ لا في مقام حديث وكانت له بداهة غريبة لا يكاد يتوقف ولا يتفكر

ولا يعيد لفظة ولا يلتزم كلمة ولا يسلك في حديثه مسلك العامة بل كثيراً ما كنت اقول عند ما اسمع نسق كلامه في حكاية او جدال لو كتب هذا الكلام كما هو وبدلت بعض الفاظه العامية بفصيحة لكان مقالة من احسن المقالات في الموضوع الذي يتكلم فيه . ثم هو على اطالته في الحديث احياناً والزيادة على حواشيه بما يخطر له من مناسبات المقام كان لا يملُّ سامعه منه ويودُّ لو يبقى فيه ساعات. وقد كنت اقول عندما كان يوصيني على موضوع لاكتب فيه او يسرد لي عبارة يريد وضعها في الجريدة لو بقي في محفوظي كل ما قاله لي من ذلك الكلام لكانت كتابتي في ذلك المعنى من خير ما يمكن ان يكتب حتى كنت اقول في نفسي لقد خلق هذا الرجل خطيباً سريع البادرة قبل ان يخلق كاتباً طلي الكتابة والانشاء بحيث كان المحرر منه يخفي الخطيب النبيه وقلم الكتابة في يده يعوقه لسان المتكلم البديه فيعثر تحت شدة افكاره او يكبو احياناً فيقصر عن تفسيرها وبيانها على الوجه الذي كان يحلو عليه ايرادها في صناعة الخطابة والبيان

ولعمري لو انفسح للفقيد مجال الخطابة او كان في مركز يدعوه اليها ويقضي عليه بمراسها لابصر منه الناس خطيباً مجيداً لا تحبسه لكنة ولا تقف في سبيل لسانه حبسة ولا تقوم من دون كلامه حجة ولا يخفى عن باصرة نقده بيان ولا برهان وكفى في نسق لحاته وبلاغة مقالاته ما يدل على ذلك اوضح دلالة

ومن محاسن صفاته رحمهُ الله انهُ كان بصيراً بارضاء الناس عالماً

بطرائق اقناعهم ورضاهم كانما ينظر الى كل قلب ويعرف كل دخيلة وسريرة فلم يكن يخرج زائرهُ الا راضياً ولا قاصدهُ الا مسروراً شاكراً سواءٌ نال حاجتهُ او لم ينلها بل كثيراً ما كان يخرج الطالب من عندهِ غير ظافر بما يطلب لتعذره وعدم امكانه وهو مسرور راضٍ كما لو نال ما يريد وماذا عسى يبغي قاصدهُ غير نيل قصده منه او الاقتناع باستحالة حصولهِ على يديه وهو لا يخرج الا حاصلاً على احد الامرين. ثم كان شديد الحب للخير والحنو على الفقراء والتأَثر لمصائب الناس حتى لم يكن يرد طالباً من هذا القبيل ولم يكن يقصدهُ احد لتفريج كربة او دفع ملمة الا لباه وسعى في قضاء حاجتهِ كأَنما يقضيها لنفسهِ او يذكر بها ما مرَّ عليه من حوادث الدهر ونوازل الايام. وكان مع وقاره وسكونه طلق الجانب بشوش الوجه لطيف العشرة عالمًا بكثير من الحوادث والتواريخ يذكرها باسماء اصحابها وتاريخ حدوثها ثم هو مع ما وصل اليه من رفعة المنزلة لم يكن يغفل اصحابه القدماء من مودة وبر ولم يكن يستعلي على احد قط

وقد كان مع ذلك كثير النقد لافعاله واقواله فلا يفعل ولا يقول شيئاً الا بعد تروٍّ وتثبت. وكان ذا ذوق حسن في الموسيقى ومعرفة بفنها اما شعرهُ فمقبول في صباهُ وبداية نظمه وحسن جيد بعد ذلك وفي تصفح ديوانه كفاية من الدلالة على منزلته في هذه الصناعة وتقلبه في درجاتها

وله عدا ديوانه هذا عدة موَلفات حال دون طبعها نقص بعض اجزائها منها عدة روايات تمثيلية كتبها لتلامذة المدرسة البطريركية

ايام تدريسه فيها .منها رواية متريدات معربة عن الفرنسوية لواضعها راسين الشاعر الفرنسوي الشهير وله ايضاً رواية لايوب الصديق حاوية كثيراً من الحكم والارشاد .وله كتاب في التاريخ القديم مفقود بعضه وهو يبحث عن الامم السابقة والشعوب القديمة باخلاقها وعوائدها ثم رسالة صغيرة في تراجم مشاهير النحاة ورسالة مطولة في قبائل العرب وكتاب في الصرف والنحو مطبوع عنوانه مدخل الطلاب الى فردوس لغة الاعراب وضعه للمدرسة البطريركية لاجعله على النسق الذي يسميه الافرنج بالتمرين .ومختصر في المنطق حسن الاسلوب .ورسالة طويلة جمع فيها كل ما وقف عليه من شوارد اللغة وشاذها وهي غير كاملة .وقد رايت له دفتراً كبيراً كأنهُ بدأَ يجمع فيه الفاظ اللغة على شكل القاموس ثم بدا له ما عاقه عن اتمامه .وله ايضاً مؤلف طويل في المعاني والبيان

ذلك ما وقفت عليه من مؤلفات الفقيد رحمه الله وما خبرته من حسن صفاته واخلاقه حتى اصابه ذلك المرض فاصاب به قلب الادب واني لا ازال اذكر لطف شمائلهِ عند رحيله ووداعهِ وكأنه جمع في ذلك الموقف كل ما كان فيه من الرقة واللطف ليبقي لنا اجمل آثاره في الاسماع واشدها وقعاً من بعدهِ على القلوب ولا شك انه كان يشعر بدنو اجله في ذلك العهد اذ لم اذكر انه ودعنا قبلها مثل ذلك الوداع من الحزن وفجعة الرحيل . اسال الله تعالى ان يسبل على ضريحه وابل رحمته ورضوانه وان يلهم قلوبنا الصبر على فقده ويسكنه فسيح جنانه

﴿ الفقيد ولمحاته ﴾

(بقلم الكاتب الاديب خليل افندي المطران)

بين الكاتب والخطيب في مراتب المجد الادبي مرتبة للخطيب بقلمه فكلامه تبصره العيون وتزنه العقول وكانما تسمعه الآذان وتخفق بنبراته القلوب. تلك مرتبة فقيد الوطن المأسوف عليه سليم بك تقلا مؤسس جريدة الاهرام ولقد تقدمني حضرة رصيفي الفاضل نجيب الحداد بترجمة الفقيد وبيان احواله في حياته وتعداد ما عرفه من اخلاقه وصفاته وانا اتكلف الان ترجمة الفقيد لا كما تقلبت عليه حوادث دهره في تسلقه معارج الكرامة والتقدم ولا كما كان بين اصدقائه وآله يحدث مفيداً او بين الفقراء يكاتم باحسانه قاصداً او يعيد الى اوطانه طريداً ولا كما كان متضعاً في الارتقاء مقداماً على حين الانتقاء شاعراً تستبق المعاني الجياد لتنتظم في جواهر كلمه وتصغر الحوادث الكبيرة او تهون المواقف الخطيرة بارشاداته وحكمه وفي الجملة فكأني المطالع الذي يقف في بعيد المستقبل على لمحاته التي اقامها كمتحف تاريخي عظيم ادخل اليه من حديقة ازهرت بشعره اشجارها وتغنت بتوقيع الفاظه اطيارها وفتحت كلطائف معانيه ازهارها وفاح كطيب ذكره نشرها وفاض بسرعة خاطره نهرها حتى اذا دخلت البناء وكل لمحة غرفة من غرفه الكثيرة وجدت فيها مصر وسائر الامم ممثلة تحركها المبادي المختلفة المتلائمة ويرفع بعضها ويخفض بعضها موج الحوادث السايرة المتصادمة فالى

هذه المشاهد العظيمة التي خطها قلمه اقصد ومن الوانها اريد ان استخرج رسم الرجل السياسي الذي جاء الدهر على يده بعبر وذهب بعبر ومن انوار مبادئه الذهبية وعواطفه الشعبية الدرية اريد ان اصوغ اكاليلاً باهراً ايكالل به ذلك الرسم وحريٌّ بهذا الاكاليل ذلك الفقيد الذي مضى ضحية جهاده والذي جاءهُ الشعب المصري لما رأى عظم اخلاصه واخلاص اخيه فقدم لهما ساعتين تمثلت بهما الشعائر الوطنية وكأنهُ من ذلك العهد رفع اليهما امره سلمًا وحربًا وقال لهما « خذا هتين الساعتين فلا نظرتما الوقت فيهما الاذكرتما ان الشعب المصري محب لكما ويريد لقاء حبه ان تحرصا على الثواني فضلا عن الدقائق والساعات في خدمة مصالحه واعزاز شأنه والمدافعة عنه من كل مغتصب » وان هذين الرجلين منذ اخذ وقتهما يحسب لهما بتينك الساعتين قد اصبحا من رجال التاريخ وهما حيان يرزقان

على ان الممتازين من الرجال ينشئون المناصب وهم فوق العامة بهمتهم واقدامهم وقلمهم فاذا علوها جعلتهم العظماء فتراهم بذلك اشبه بمخطط المرصد الفلكي رغبة في مراقبة النجوم التي يتصورها دون معرفة حقيقية لها فاذا تم له المرصد وارتفع عليه اخذ يرقبها عن كثب بمقدار ما تمكنه قوة منظار علمه ثم لا يلبث ان يتعرفها وتأنس اليه فيرى منها جليًا ما كان يراه مغشى ببعض حجب الابهام لعدم استحكام عادته في النظر واذ ذاك يفيد عن احوالها ما لا يفيد المطلع غير الخبير وهذا الشأن انما هو شأن المرحوم سليم بك نقلا فقد يجد القارئُ لمحاته الاولى مشحونةً بالمبادىء الفلسفية والمادة التاريخية تنبئُ

عن فكر نهكه السهر في الدراسة وقلب طالب غاية سامية يبعث القلم رائداً
لها ولكن تلك المبادئ والمادة جاءت مشوشة لانها كانت مجموعة من علوم
شتى لا ناشئة في فكره عنها وذلك لما يعلم الجميع من حالة
القطر المصري في تلك الايام التي كان فيها الجهل بالمعارف حتى بالحقوق
الشخصية سائداً بين القوم الى درجة ان كان الكاتب ينظر كثرة الحاجات
لواجب تنبيههم اليها والآفات اللازم تحذيرهم منها فيضطر الى الاكثار
من عبر التاريخ وتلقين المبادئ الاجتماعية ولكن على الاسلوب النظري
الصرف المحدث عن براعة الاستاذ في حسن القاء افادته لا عن سعة تصرف
السياسي وفي تركيب العبارة الحاوية لتلك المعاني على نحو ما ادمجها فيه من
الاساليب المدرسية دليل تكاد تشعر منه بحرارة الشمعات التي افناها على
تلقن اساليب الكتاب والحذو على مثالهم غير مستامن للملكة المنشئة التي لم
تكن قد استحكمت في نفسه لان مادتها لم تكن قد تهيأت ولكنك لا تلبث
ان تنتقل من تلك المقالات التي كان يقدمها في طريقه مستهدياً بتأثيراتها
لدى الشعب الى اليوم الذي استقلت فيه طريقته فكتب المقالات مطلقات
العبارة طلقات المعاني شوارد من كل صوب يصعدن كل جبل وينزلن في
كل وادٍ والوجهة واحدة وهي اصلاح حالة القطر

وهنا لا اجد بداً من قطع سلسلة الكلام والاعتذار الى القارئ عن
عدم ايراد الشواهد لئلا احتاج الى تقطيع تلك الحلقات المتصلة فارده الى
اللمحات يجد فيها حقيقة ما قدمته . ولما كان الفقيد قد بحث في السياسة بين

خارجية وداخلية رايت ان انقل رسمهُ على هيئتين هيئة ينظر فيها الى
الدول في احوالها وخصوماتها الداخلية وهيئة ينظر فيها الى الدولة العلية
ويخص منها هذا القطر السعيد . اما مقالاتهُ في السياسة الخارجية فكان
الفقيد يطلق فيها فكر الحكيم المستدل المستنتج لا فكر الخبير المتنبيء بطرف
من دسيسة حاضرة على حادثة عظيمة تتولد منها وعليه فتراه يكتب عن
تلك الاحوال وكأنهُ الناسج لديه الخيوط مختلطة فيختار كل خيط منها للمكان
الذي حقه ان يكون فيه ثم يبرز ذلك النسيج محكم التركيب صادقاً في
وضع كل خيط مكانه وفوق ذلك مفوّقاً بالطف التفويف دافعاً للملل من
سرد الدلائل ونتائجها . ولما كانت تلك المواضيع يهمه الاطلاع عليها وليس
عندهُ داعٍ من نفسه او من الظروف ليدخل عواطفه فيها كان يتفنن في
مقالاته الخارجية تفنن المتفكه بنبش الدسائس واستنباط خفايا السياسة
صادقتها وخادعتها ويرى الدول الكثيرة تتحرك من حوليه فيشتغل بها
فكرهُ ولا ينبض لها عرق في قلبه الذي وقف امياله للدولة العليةُ عموماً
ولمصر خصوصاً . اما من حيث السياسة الداخلية فمنذ استقر رايه بعد
الاضطراب ونزع به شرف النفس وطهارة الذمة الى ايفاء اوطانه حقوقها
على كل عثماني صادق لم يعرف سآمة في الجهاد ولا جبناً لدى طلب الاصلاح
مع المضايقة الشديدة والضغط العنيف على الجرائد في تلك الايام حتى اذا
جاءته الليلة الهائلة ليلة فرَّ واخوه سجين والخطر حائم فوق رأسيهما
والدول جميعاً موجهة النظر الى شأن مصر واليهما لم يرد الله ان يضحيا مع

كونهما تقدما للضحية وابى الحق ان يحتل الاجانب بعد ذلك هذا القطر ويستعصوا فيه دون مستصرخ عليهم ان ظلموا او شاهد ان اثموا فانجيا من العقوبة الموبقة وخرج السليم بعد ذلك مشبع الراي حزماً من برق السيف الذي شهر عليه في الساعة المدلهمه ومشبع القلب دماً من دم الحمية التي زادتها فيه فجاعة تلك الغمة فكتب بما خفق به فواده الوطني وقيل (هذا الرجل) بصوت واحد من افواه جميع الامة ومن ذلك العهد ترى مقالاته خرجت من حد التحسن الى حد التكامل لان شرائط السياسي المحنك في السياسة الاهلية قد تمت فيه بما تقتضيه من العلم الواسع وطويل الاختبار ومراس التجربـة التي تعرض فيها المهجة للسفك ورحم الله من قال

ولا ينال العلى من قدم الحذرا

ولقد شعر رحمه الله منذ ذلك العهد بخوف على القطر من يد الاجنبي فقال بالاصلاح ونبه وحذر وبسط الطرق التي تسد بها ثغور المالية واوصى بجمع الكلمة العسكرية واتقان ضبطها حتى اذا وقعت الحادثة الاخيرة قاومها بما في وسعه وخوف الوطنيين من شر النتيجة التي جرهم اليها قوادها فلم يتنبهوا لكلامه الا وقد فعلوا فعلتهم فدخل الانكليز القطر وقضي الامر واعتبر المصري طفلا عبث ببيته وبيت ابيه ووجب ان ياتيه وصي غير ذي نسب اليه ليصلح حاله ولا اظن غنياً اوتم صغيراً الا وهو يذكر شيئاً لوصيه القريب فكيف ما يذكر من ذلك للوصي الغريب وهذا ما اجفل له قلم السليم في شدة وطنيته فاخذ يراقب المراقبين فيما ائتمنوا عليه غير هائب وعيدا ولا طامع

في وعد شعاره الحق والحق يريد فلا يكتب سطرا الا بنصح او تنديد يعودان بالخير على البلاد الا ان الخوف ساد حيناً على الشعب وذلك لجهله لانه كان يحسب المدافع الانكليزية جواباً لكل اعتراض منه فمن اخلص لوطنه في سره كانه يرتكب جريمة ومن كان عثمانياً خاف العقوبة بمركزه او مصلحة من مصالحه لعثمانيته ولا سيما بعد اذ حبطت المساعي للمؤتمر الذي كانت الدول قد عولت على عقده في لندن للنظر في مسألة مصر فبينما البحر راقد والافكار مستكينة غير ساكنة والغيرة الوطنية العثمانية ينتفض نورها الضعيف في بعض القلوب كاضطراب النور الشحيح الذي كاد ينضب زيته اذهب من الاسكندرية نداء طبق العاصمة ودار في اطراف البلاد فماج له بحر الخواطر وانقلب النور ناراً تتوقد في القلوب وكبرت نفس العثماني ان تكبر بعض المصالح الذاتية على شرف لتبه وقال المصري انا مصري عثماني جهاراً على رووس الاشهاد وكان ذلك النداء نداء النسر من قمة وطنيته والاسد من جوف عرينه بل مقالة عنوانها (الجامعة العثمانية) ومن ذلك العهد تعانقت قلوب المصريين والتقت عواطفهم في ملتقى واحد يسمى الراي العام

وما زال السليم موقظ هذا الراي ومتخذه سوراً يحارب به كل من رام مضرة بالبلاد ولا سيما بالفلاح المسكين الذي طالما خفف عنه الضرائب بضراعاته وشكاواه وملحوظاته وافاداته وطالما علمه حقوقه مما عليه وله وكرم له نفسه لتكرم عليه حتى مالبث ان تعلم وعرف ونهض من وهدة الخمول

التي كان فيها . معفر الراس الى شرفة العضوية المهمة في الانسانية ولئن كان لم يزل فقيراً لتثقيل الاجانب عليه وجهله الاقتصاد فهو قد اصبح عزيزاً محترماً ذا راي وقول مسموع . هذا رجل الوطن الى اليوم الذي استقرت فيه الاحوال على هذه السلم المسلحة لتعقد السياسة في كل الدنيا وارتباط المسائل بعضها بالبعض حتى يقدر الخبيرون ان الحرب الاتية تكون قيامة ذات زلازل ما دام سلام اليوم حرباً بما فيه من البلابل والشواغل وما زال رحمه الله يراقب ويحاسب ويجاهد ويناضل الى ان عرته تلك العلة الشديدة في قلبه الذي قتله سهراً على مواجبه حتى توفاه الله وقد عرف الخافقان قدره وملات الدول بالوسامات صدره فنام نومة التعب وبكته الامة والفضل والعلم فعلى ضريحك ياسليم سلام فهو الضريح حوى من اثرك ذخراً كريماً واصبح هيكلا للوطنية ابداً يتلى عليه حديثك الذي لا يصبح قديماً

وللفقيد رحمه الله من آثار اعماله في صباه تاليف ناتي على ذكرها تباعاً وقد حال دون طبعها نقص اجزاء منها تنقطع بها سلسلة المعاني فمن ذلك له ثلاث روايات صغيرة صنعها في صباه لتمثلها تلامذة المدرسة البطريركية وكانت لها تلك الرنات الشهيرة نخص منها رواية ميتريدات المعربة عن الفرنسوية من تاليف الشاعر العظيم راسين وقد ذكر لنا احد اتراب الفقيد ان هذه الرواية لما مثلت ولم يكن فيها عيب الا طولها اخذت بمجامع الافكار مدة ٦ ساعات حتى لم يبق اديب من الحضور الا قرظها وكان في ودنا لو سلمت هذه الرواية من خدوش الايام لنقدمها مثلاً للمولفين يحتذون عليه في تاليفهم ثم

رواية ايوب وهي من الجيدات التي لا تزال تدوي بذكرها محافل الادباء

وله كتاب في التاريخ القديم مفقودة منه بعض اوراقه ولكنه من حسن السبك واتقان سرد الحوادث بمكان وهو يبحث فيه عن الامم السالفة غير مستثنٍ منها احداها

وله تاليف صغير في تراجمة النحاة الشهيرين مكتوبة فيه كل ترجمة ببضعة اسطر واعية لاهم واوسع ما يذكر في مثلها عن اصحاب التراجم وله فصل طويل مستوفٍ قبائل العرب وانسابها باجلى بيان واقرب ماخذ

وله في الصرف والنحو الكتاب المعروف بمدخل الطلاب الى فردوس لغة الاعراب وهو مبني على اسهل طريقة كتب فيها بهذا الفن واقربها تناولا واجمعها معنى على قلة مواده المطلوب حفظها وله مختصر في المنطق هو من الايساغوجي في احكام ضبط احكامه ومتانة عبارته كالجديد المنقح المطبق على احتياجات العصر من القديم البديع الذي لايفي بتلك الحاجات وله قيود كثيرة جمع بها ما كثر من شارد اللغة وشاذها ولكنها غير تامة وكأني بدفتر من دفاتره الجسام قد بدأ فيه بانشاء معجم لالفاظ اللغة غير ان قليل ما وجدناه من ذلك لا يكفي لاطلاق حكم عليه وله مولف مطول مستوفٍ شروط الاتقان والصناعة في البديع وانواعه مع الامثلة على كل فرع من فروعه وقاعدة من قواعده بابيات قديمة من الشعر الجيد الذي يدل على حسن ذوقه في الاختيار واتساع محفوظه من درر اللغة اما القواعد فكثيرة التقسيم وجيزة العبارة بمنتهى السهولة وله ايضاً شرح موجز على ديوان المتنبي

ولهُ ايضاً رسائل كثيرة الى ادباء العصر لم نظفر الا ببعضها نذكره دلالة على سائرها فمن ذلك تعزية في الشيخ بديع اليافي استاذه في الفقه

يشقُ والله عليَّ ان يكون كتابي هذا مظهر تعزية لفقد من كان يرجو لهُ الوطن العزيز بقاءً اطول ليتمتع بوجوده ولو انه سيدوم متمتعاً بمنافع آثاره ولم يمت من ترك الخلف الصالح ولا حاجة لان ابين لك ايها الفاضل مبلغ اسفي على الرزءِ الوطني به فان فقد المرحوم انما هو خسارة تتناول كل من عرف قدره والله نسال ان يمتعه بفردوسه ويلهمكم من بعده صبراً جميلا ويكتب لكم به اجراً جزيلا بمنه وفضله

وله في عزيز قوم

لسنا كالامم لان لنا رجاءً فلا داعية الى الشجن اي نعم انا فقدنا من عاش حميدا ومضى فقيدا ولكن تلك غاية كل حي وان طالت سلامته ولم يمت من اعقب رجالا لهم في سجل المدائح صفحات تذكر وفي اندية المحامد مقامات تشكر الهم الله افئدتكم صبرا وكتب لكم به اجرا

وله من رسالة   السيد السند اطال الله بقاءَه   لا ادري اسيء الثلثة إهني اياك ام الرتبة ام نفسي اما انت فبتساميك وان كنت فوق ما نلت واما هي فبتشرفها لانها دون من سعت اليه واما انا فلاني اول مخلص لك ودك فتهنئتي بما افتخر به لك ويا حبذا لو كان لي مداد برقي ويراع كهربائي افيك به حقك من سروري ولعل ما بين قلبينا يقوم. هذا المقام عني فاقول

فان اشكك اراجع فالدليل معي وان تشككك فراجع فالدليل معاك

وله من رسالة ايضاً دولتلو افندم حضرتلري

من لي بمثل يراعكم الذي مداده البرق وطرسه الافق ومعانيه الشهب الثواقب فافيكم به حق الوداد الجزيل على ما اوليتمونا من الشان الجليل ادام الله جلالة مولانا السلطان الاعظم ولا برح لجبين الفخر غره ولعين المجد قره ولسماء الحكمة نورها الباهي الباهر ولرياض السياسة وردها الزاهي الزاهر وللامة نبراسها الساطع وللوطن شهابها اللامع وادام رجال دولته الفخام ولاسيما من تفيأت العدالة في ظلاله وافتخر الدستور بعنايته فانشد لسان حاله

يا جودةً للعدل دم نبراسهُ وإمامهُ
تلقى الثناء بجنبه وترى الولاء أمامهُ

ومن جيد شعرهِ قولهُ من قصيدة

مروءة المرء في صرفٍ من الزمنِ تبين الفرق بين الرمح والغصنِ
وللعظائمِ قوم لا يروعهمُ لدى الصدام زحام الخيل والحصنِ
من كلف النفسَ امرًا فوق طاقتها فقد تكلف خوض البحر بالهجنِ
على الرجاء تعيش الناس كلهمُ والدهرُ كالبحر والآمال كالسفنِ
الوِ العنان الى مهد السيادة في صرح السماك ولا تجنح الى الدمنِ
وكن شجاعاً اذا اشتدَّ النزال ولا ترضَ المعيشة في الدنيا وانت دني

وقولهُ من قصيدة

لي بينها بانةٍ بالحسن مورقةٌ وظلها لفؤاد الصب كاللهبِ

فتانة اللحظ ادمتني بوارقه ... معسولة الثغر شاقتني الى الضربِ
تقول ان نتكت فينا نواظرها ... السيف اصدقُ أَنباءً من الكتبِ
اني اسير هواها فهو قيدني ... كأَنهُ مدح ذي الالطاف والادبِ
سعد مضاف الى مولاه مكتسب ... من المضاف اليه رفعة النسبِ

وقوله في ترك السيكاره

عذل التدخين قوم قد رأَوا ... بيدي سيكارة اعشقها
قال دعها فهي سمٌّ ناقعٌ ... قلت لا والله لا اعتقها
ان تكن سمًا فاني نحرقٌ ... شرها بالنار اذ احرقها
وعليه فاعذلوا او فاعذروا ... فعلى الحالين لا اطلقها
ان حلالًا اوحرامًا شربها ... فانا الصبُّ الذي يعشقها

وقوله من قصيدة

حياك مولاك والاسعاد حياكا ... يا من سنى البدر يبدو من محياكا
سبحان ربك صاغ الكون من خزفٍ ... وانت من معدن الالطاف سوَّاكا

وقوله من قصيدة

تثنت بالحلى والقد املدْ ... نخات الغصن في ورقٍ تأَوَّد
وراشت من لواحظها نبالا ... واشهر جفنها سيفًا مهند
تجلت فوق عرش الحسن تيهًا ... لذا كل لخدمتها تجند
زكا في خدها قبس اذا ما ... مجوسيٌّ رآه لهُ تعبد

ومن تواريخه في صباه

سار ابن بويز تاركاً دار الشقا ومضى الى دار البقا متهللا
والله في الانجيل ارخ سيره لاقى مخلصه استغانس اولا
سنة ١٨٧٢

وله من تاريخ لضريح عزيز قوم

ناداه بالتاريخ عند وفوده لك جنتي يا من سعيت لجنتي
١٨٧٢

من اوائل شعرهِ ما قالهُ في عام ٦٥ موءرخاً ميلاد احد الامراء الشهابيين

بزغ الشهاب اليوم في أُفق العلى فجلا غياهب ارضنا لما انجلى
طفحت بشائرهُ على اقطارنا ورداً فصادف كلُّ ظامٍ منهلا
والسعد نادى حين ارخ جودهُ بزغ الشهاب اليوم في أُفق العلى

وقولهُ من قصيدة في عام ٧٠

غزاني بالقنا والصبر ادبرْ هلالٌ في سماء الحسن اسفرْ
لقد خطَّ الجمال على جبينٍ لهُ سبحان من انشا وصوَّرْ
ارانا من صفاء الثغر منهُ زلالاً بات عند الرشف سكر

وقوله

عرفت معانيه من الادباء وعلت مدائحهُ على الخطباء
قد اسكر الالباب خمر قريضه شتان بين النظم والصهباء
لله من ابكار افكار لهُ قد اطلعت بدراً بجنح مساء

وقوله في المديح

حيا ربى الشرق بالاسعاد كوكبهُ فتمَّ من وفده بالانس مطلبهُ
نال الرئاسة عدلاً وهو سيدها فيهِ استعزت وفيها راج مذهبهُ
اليك عني حديثاً عنهُ يطربني وان يكن في مديح ليس يطربهُ

وقوله

فرق الورى عن بعضهم فيما يرى اذ ليس حكم للتساوي قد جرى

كلٌّ لهُ شانٌ بما يصبو لهُ فلذاك قد وجب التخالف في الورى
فالبعض يصبو للجهالة دائماً ويرى العلوم لديهِ موتاً احمرا
والبعض يصبو للعلوم واهلها فينال من خوض البحار الجوهرا

وقولهُ من موشح

صاد قلبي اغيدٌ مثل القمرْ حسنهُ اهل البها طرّاً قمرْ

دور

ماس عجباً بين تيهٍ ودلالْ فابان القدُّ عن حسن اعتدال
وانثنى يسطو على اهل الجمالْ فلذا ناديت لما ان خطر
يا معاني العشق دع عنك الخطر

دور

قد اعار البدر من باهي سناه واعار الشمس من سامي بهاه
واجاد اللطف فيما قد حواه فتذكرنا الصبا وقت السحر
وبهذا كل لبٍ قد سحر

وقوله من قصيدة

لقد بزغت بجمر الوجنتينِ فشاهدناها كالجنتين
فتاة حبها قد بات ديني ولكن عهدها قد صار دَيني
تثنت واستطالت في قوامٍ به قلنا الردى شبه الرديني

ومن قوله في الرثاء عام ٧١

يستوثق المرءُ في احكام دنياهُ وليس ينظر في حكمٍ لاخراهُ

يخالط الدهر في همٍ وفي محنٍ ويحسب الكون عبداً وهو مولاهُ

ومنها

لهُ السجايا التي صح المديح لها والمرءُ يعلو سواهُ في سجاياهُ
قد قال شاعرنا معنى اضمنهُ الناس لولا سجايا النفس اشباهُ

وله من قصيدة

قرت بفضلك اهل البدو والحضرِ وفاق قدرك متن الشمس والقمرِ
بك العيون استضاءت والمواطن اذ بزغت بدراً باوج السعد والظفرِ
ياحكمةً قل حاويها ويا رجلاً قل النظير له في موضع النظر

ولهُ مورخاً وفاة عالمنا المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي

ثلَّ عرش العلم يا اهل الوطن مذ قضى ناصيف ميزان الفطن
مات علامتنا الفرد الذي كان بالآدابِ قطباً للزمن
فعلومٌ وفنونٌ وعلى بعدهُ اضحت بغمٍ وحزن
فأتى التاريخ في انشائه ثلَّ عرش العلم يا اهل الوطن

ولهُ من قصيدة

وجب امتداحك بالحقيق الموجبِ يامن غدا في الشرق افضل كوكبِ
قد خصص النظم الرقيق عروضهُ في بث وصفك بعد سرد الاضربِ
غازلت افكاري بحسن صفاتكم فرأيت غيركمُ كبرقٍ خلبِ

ولهُ في الرثاء

في كل يومٍ للصحابِ مودعُ وبكل آنٍ للاحبة مدمعُ

يا طالما نصح الزمان رجالهُ ... فرأى نصيحتهُ بهم لا تنجعُ
خلت المنازل من رجال شيدوا ... ابراجها وكأنما هي بلقعُ
خطفت ايادي البين منا فاضلاً ... امسى لفرقته الصواب يضيعُ
وافاهُ داعي البين غدراً فانثنى ... عن ارضنا ولهُ القلوب تشيعُ
يا طالما جبر الكسير وطالما ... اغنى الفقير بما به يتبرعُ

وفي ختامها

زاد الصلاح اجلُّ زاد فاكنزوا ... منه فليس بدونه ما ينفعُ

ولهُ من قصيدة في الامير عثمان الشهابي

من مطالع السفح في نعمان نعمانُ ... ومن قدود بنات الحي اغصانُ
وفي مرابع ذاك الربع قائمة ... ترعى قلوب اسود العشق غزلان
آرام انسٍ لها في قلب كل فتى ... محل حبٍ وفي الافكار ميدان
يا ايها العرب اهل الجود دونكمُ ... صباً براهُ الهوى والجفن يقظان
كم من بشيرٍ اتى منكم وساد على ... مواطن الشرق حتى قام عثمان
هذا الامير الذي في فخرهِ شرفٌ ... ومن فضائله امسى لهُ شانُ

وله مؤرخاً وفاة هيكل الغريب سنة ١٨٥٠

اجرى دموعَ بني الغريب فقد من ... قد بات في دار السعادة ينعمُ
قد بان عن دار الشقاء مخلفاً ... ذكراً به سلك المدائح ينظمُ
شادت لهُ حسن الفضائل هيكلاً ... في الخلد وهو بروضه يتنعمُ
ومسطر التاريخ اكد كاتباً ... في هيكل الملكوت هيكل يخدمُ

وقال يمدح سمو اسمعيل باشا الخديوي الاسبق وذلك اولاً بقوله

خير العزيز البها اسمعيلَ مال لهُ بالبشر يحيي مديحاً كامل البشرِ
ليثٌ وقيلٌ عزيز الدّر بدرُ ملا يحيي البرايا بخصبٍ حاكم الوطرِ

وهذان البيتان يتضمنان ثمانية وعشرين تاريخاً هجرياً لسنة ١٢٩٢ وذلك يحصل من كل شطرٍ منها ومن مهمل كل بيت منها ومن معجمه ومن مهمل كل شطر مع معجم كل شطر فيها وبالعكس صدراً الصدر وعجزاً العجز وبالخلاف كما يظهر بالامتحان. واستتبع ذلك بقصيدة ضمن كل بيتٍ منها تاريخين لسنة ١٢٩٢ ايضاً. وافتتح صدور اياتها بحروف اذا جمعت على الترتيب خرج منها بيتان يتضمن كل واحد منها اربعة تواريخ للسنة المذكورة. وجعل الابيات المصدرة بحروف البيت الاول نسيباً والابيات المصدرة بحروف البيت الثاني مديحاً

اما البيتان فهما هذان

بمصر ظللٌ عليٌّ فيضهُ وفرا عنا الخليقةِ . فضلاً دام منهمرا
غنمٌ وملك علوٍ . هام غامرهُ كداً وكلٌّ يناغي قم . نلِ الظفرا

واما القصيدة فهي قولهُ

ب | بانت تبسمُ نمّاً عن اقاحيها مليحة جاوزت عقلي معانيها
م | مهاة انسٍ لها بالقوم معجزة تسبي العقول ولن يحكى تجليها
ص | صبراً أعاشقها مما تجيك بهِ من الدهاء علاجاً في تثنيها
ر | رأت لآليَ بالايجاب ساقطةً واصبحت تدعي ما عدَّ في فيها
ظ | ظلَّ الهوى موصلاً هولاً يعيد به على متيمهِ ريباً وتنبيها

ل للحظ هولٌ مبينٌ لم يبن حيلاً   من درةٍ لم يُقل شبهٌ يدانيها

ل لمْ يا عذولي بما اللوم لي اربٌ   فيه وخلّ الا نجي يحوي الهنا فيها

ع على بديهٍ سرى من فوق طرتها   يدٌ وتكتبْ ودا جل منشيها

ل لما بدا خالها يسمو بجنتها   دعوت حبة قلبي كي يجاريها

ي يا ربةَ الحسن لم يقبل هداهُ شجٍ   بتركه انما يوفيه تمويها

ف في باسم العز جئت اليوم مالكةً   في عرش حسنٍ بهي يزهو بنا تيها

ي يا ورد جنتها اشرب طائفاً ابداً   من كوثر الفم وانزع من يداعيها

ض ضاع الهوى وإننا مرّ يديم به   إفشا وروحي لمن احببت القيها

ه هذا فؤادي لبكر كلّ واصفها   ضعفاً افاد الاماني من دواهيها

و وحق مقلتها السوداء طائفة   ما دان راجي الهوى لولا مواضيها

ف فرت بسيف يرى في عين حاجبها   من صدّ لوماً نخفف من يعاديها

ر رمت قسياً بقلبٍ لم يدن ربياً   خوفاً من الوفد بل بالصبر يوهيها

ا ادماء تعفي عُبيداً قد تملكهُ   هيامه وردي إعفا مباديها

ع عرج ركابك يامن كدّ منثنياً   عن بأس من لم يتم مثلٌ يباريها

ن نمت لفرعٍ دجا من نعهاد قلٌ   تهذي بحاجب عينٍ آب هاويها

ا المسكُ من خالها المسود سرّحهُ   ذكوٌ نارٍ بوصل الحب يصليها

ا اذاقني هجرها حملاً والمني   بثقله وانا اوفي تجافيها

ل لعرش عزك يا بنتَ البديع جبى   قلبَ الرعية ملكٌ رام يصبيها

خ خلي سواك يرى في جهله طرباً   فدولة الحسن ما أكدت معاليها

ل | لوذي بوجهٍ يسودُ الحسنَ صوَّرهُ | الهُ خالقٍ ودود جلَّ تنزيها
ي | ياقوت دمعي دماً القيتهُ ومدى | تسكابه عيب عينٍ عن تناهيها
ق | قامت بقامةِ بانٍ لم يطلَّ لها | قضيب بانٍ لطعن من نواهيها
ت | تيهي وصولي ولا تنسي سليب نوى | يقضي الليالي على سيلٍ ويحييها
ف | فودي قد ابيضَّ من بعدٍ يدين له | شيب وسرت معدَّ العين باكيها
ض | ضمَّ الهيامُ لنا وجداً نجير به | خطوبنا وبصاب الشوق يُنشيها
ل | لي بالمضارب حِبٌّ لا يلين لهُ | قلبٌ ونفسي ترى بالكد راعيها
ا | اذاقها رميها ما ساءَ في كبدي | إذاقتي وبلا وجدٍ اداويها
د | دعي لحاظك عني انني ابداً | شاكٍ لهُ كبدٌ تجري مراميها
ا | ايمان قلبي مكينٌ ثابتٌ وجوى | ذاك الفؤاد عنيد في روابيها
م | ماجت وارسلت الداجي وفاح به | عطرٌ ويا ذلَّ قلبي من دياجيها
م | مليكة ملكت عقلي فجاءَ بها | طرف رقيب راى إنبا تهاديها
ن | نهودها بين صدر مذهب حسنٍ | ملهى للحظٍ جميلٍ من محبيها
ه | هذه محاسن حالٍ لاشبيه لها | رقت واهدت بهاءً جل معطيها
م | ما قاومتها بنات المجد في دعجٍ | لمقلةٍ جاءَ حتف من مجانيها
ر | رُح يا عذولي فحبي لم يحك حيلاً | ولا تعنت وسائل عن امانيها
ا | السعد بادٍ وطب الدهر يخبرنا | عن نعمةٍ بهدًى جاءت مساعيها
غ | غُنم الملا بهناءٍ حائطٍ وبها | يُنحى بفرع خليل الحق واليها
ن | نبع المكارم جفن الدهر منعشه | نصرُ الورى الشهم اسماعيل سامنيها

م مهدُ المعالي وفيُّ الخير حافلهُ … جاني ثناءِ امير العرب واقيها
و وفرع قرمٍ له صيت يمدُّ به … جالي ثناءِ معاني حار قاريها
م محمدٌ وعليُّ الشانِ من زهرتْ … بشخصه الناسُ عما هبَّ يهديها
ل لله من ذكرهِ الباهي يقومُ بهِ … انعاشُ خلقٍ بإِجمالٍ يواليها
ك كفاهُ مانالَ من فخرٍ يعزُّ بهِ … وقد غدا حكمَ الايام هاديها
ع علاهُ علَّى الورى سعداً ومرحمةً … بذلك الشبلِ آي الناس باهيها
ل لبيكَ يا ناظماً وصفاً يجلُ بــهِ … جاهد وقل لم يجزْ في الدهر تشبيها
و وقل لساحاتِ نارِ الحرب في نكدٍ … من بعد نار خليلٍ طاف يطفيها
ه هذا ابو الحرب ابراهيم وجهُ ندى … ليثُ الطراد دو الفرسان يحييها
ا اكرم بها نسبةً طابت فباحَ بها … شهدُ السلالةِ صدقاً جاءَ يرويها
م مضوا وابقوا لنا من بعدهم بدلاً … ذاكَ الحسيب فقيه النفس زاكيها
غ غابَ العنا وبدا مجدٌ بطيٍ هنا … برقةِ الدهر مدحِ الناس معليها
ا ابو المفاخر إِسماعيلُ زهوُ علاً … امُّ المعالي بباهي الاسم قاضيها
م مالت الى درهِ الاكوان جانحةً … الى فراديسِ خيرٍ حجَّ ناحيها
ز زُحْ شم معالمهُ الجناتِ وانحُ بها … جناتِ عدنٍ ترد ما لايحاجيها
ه هذا هو الحرمُ الاقصى يزيل بهِ … نبلَ الحوادثِ من قدأمَّ توجيها
ك كبر ورنم باعلى الصوت في حولٍ … هذا ابرُّ الورى ديناً وحاميها
د دانت لهيبتهِ الآساد عن سحق … مثلَ البلاد بما آبت أقاصيها
ا أَزدى العدى بدثارٍ قد أَماد لهم … لطمَ المنون فضلوا في بواديها

و ورام سوداً ببيضٍ لم يمدَّ لها الا ذراعاً لداءٍ في نواصيها

ك كلٌّ يخرُّ له رُعباً أُحمَّ لهم فالزنج تُقصر حرباً أَنَّ بانيها

ل للناس من كفه فضلٌ اجاد بهِ بدون وعدٍ ودينٍ جاء يغنيها

ي يا مصرُ قاهرةَ الدنيا علاكِ حيّ بمسلكِ الجودِ باهي الخلق راقيها

ن نادي بفرعٍ بهِ التوفيق عزاً اسسٍ محمدٍ هو ظلُّ الناسِ عاليها

ا أَتبع بباقي فروعٍ ادركوا وكفى ما ادركوا من صفاتٍ رُدَّ محصيها

غ غني بمجد عزيز ماجدٍ بطلٍ راقي المراتب ساطٍ في علاليها

ي يا ذا المعالي ويا ابن العز منك على سواك فيضٌ وجدوى ساد داريها

ق قفْ واعتلِ المجد هيباً انت موجده أَبصر صروح المعالي انت مبديها

م مكّن قرار سماحٍ انت مبدعهُ ونحِّ علةَ سقمٍ انت آسيها

ن نداكَ احيا الورى قسطاً فمكرمةً من جَوْدِ كفٍ بها نِدٌّ غواديها

ل لما رأَيتكَ فردَ الناس نجمَ ملاً شريف حلمٍ هتون السحب هاميها

ا أَقبلتُ من بر شامٍ موجداً املاً بمصرَ ارشفُ كأْساً عمَّ صافيها

ل لجأْتُ وافيتُ منقاداً اميد على هذه الربوع بيمنٍ في نواحيها

ظ ظلٌّ عليٌّ بهِ نحيا نطيعُ ولا نُهدى سوى نعمةٍ يدنو تساميها

ف فالحظْ ابا الجودِ عبداً طالباً دسماً من خير كفٍ بها دلٌّ لراجيها

ر راق امتداحي وانشا ماطمى حكماً تعي معانيَ قد ازكت مبانيها

ا اهديته بنت فكرٍ حاك مولدُها ما حاز والان قد تمت قوافيها

وقال يرثي العالم الاديب والكاتب الاريب والشاعر الحاذق والفقيه الصادق والطبيب النطاسي والرياضي الالمعي المرحوم ملحم افندي الشميل المنتقل الى رحمته تعالى في لبنان عام ١٨٨٥

حكمَ البينُ بيننا ببعادِ ... فاتَّشحنا الشجونَ ثوب حدادِ
رحلَ الصَّحبُ غفلةً فألفنا ... بعد ترحالهم طويلَ السهادِ
يا حماكمْ أَللهُ سيروا حثيثاً ... عن حمانا في عرض تلك البوادي
يا مطايا الصحابِ خففنَ وطئاً ... فثراكنَّ طينة الاكبادِ
احرقتها لظى المنية غدراً ... وذرتها في الارض ذري الرماد
واغتدت طينةً بدمعٍ فقلنا ... خفّفِ السير وانشدْ يا حادي
لا اقولُ الفؤادُ معكم لاني ... لا ارى حرقة بدون فؤادِ
شتتت شملنا المنون ولكن ... لا ارى غيرها لجمع العبادِ
يا حياةً ما رابنا منك موتٌ ... فهو لا شك منشأُ الاجسادِ
ما خلقنا كما اردنا لكيما ... نتفيا ظلَّ البقا عن مرادِ
ساعة الموتِ والحياة لحظٌ ... مثل هذا كساعة الميلادِ
ليس بين الحياة والموت فرقٌ ... فالتساوي اتى من الاضدادِ
فهي عنه معلولةٌ وهو عنها ... يتأَتى تكافوءا باطراد
حركاتٌ في الكون تبدو لعيني ... ك ولكنَّ سرها غير بادِ
يخبطُ الناسُ خبطَ عشواءَ فيه ... باعتساف الاغوار والانجادِ
غاية العلم بالحقيقة جهلٌ ... كانتقاصٍ منشاهُ فرط ازدياد

ذلك السرُّ يعلم الله لا غير	وما من دون المهيمن هادِ
ليس اولى من الحقيقة للمرء	ومن لي بمثلها في الرقادِ
مع هذا يرى الحقيقة وهماً	فهو لاهٍ والموت بالمرصادِ
يا لجرحٍ اصاب قلبي وما من	مُلحمٍ بعد مُلحمٍ في البلادِ
قبسٌ احرق الفؤاد ولا غر	وَ فقد سال منه قلبُ الجمادِ
ورمى العينَ بالبياضِ ففاضت	حين ولى إنسانُ ذاك السوادِ
بان عنا من كان منا ولكن	كان في فضلهِ من الآحادِ
فاجأَته المنون غدراً لكي لا	يفتديه من صحبه كل فادِ
يندبُ الشعر فقدهُ فهو امسى	بعد رب القريض دون عمادِ
يا لها اللهُ من عرائسِ فكرٍ	خطبتهـا عقول اهل الرشاد
سائراتٍ بكل معنى بديعٍ	سافراتٍ لكن بثوب سوادِ
زانهُ واجبُ الوجود بعقلٍ	عُدَّ فيه من خيرة الافراد
كان سامي الحجى بديع السجايا	وافرَ الفضل كعبة القصَّاد
ثابت الفكر ما تعاصت عليهِ	مشكلاتٌ ولا قضى بفسادِ
شاعرٌ ناثرٌ فقيه طبيبٌ	عالمٌ حاذقٌ وطيدُ السدادِ
طالما قال حكمةً عززتها	بالمعاني شواهدُ الاسنادِ
كان في حلبة الجدال يذيق الـ	ـخصم مرَّ الجلاد دون جلادِ
كان في الحالتين يسرٍ وعُسرٍ	واحدَ الطبع والخصال الجيادِ
من تُراه يا ابنَ الشميّلِ يسلو	لك ذكراً معطراً كلَّ نادِ

رحت عنا والدمع يجري صبيباً وسخينا فالجفن ريان صادِ
قد خططت الرثا باحمر نقس فدمائي عصارة لمدادي
لست اسلوك ماحييت لحزني جمرات تذكى بطول التمادي
لست اسلوك ماشجا الصب هجرا ن وما اترعت ثراك الغوادي
سر بيمن فالله خير وابقى وجميل الفعال افضل زاد

وقال موٴرخاً

توارى ابن الشميل طي رمس جعلناه به للصحب قلبا
تسامت نفسه فاستقدمته الى اسمى من الدنيا فلبى
عهدتك ملجماً للجرح لكن رايت بفقدك الانجاب سلبا
رغبت عن الشقا فغربت عنا ورحت موٴرخاً فرغبت ربا

وقال يهني المغفور له توفيق باشا خديوي مصر بوصول نجليه ولي العهد وشقيقه

لك يا توفيق مصر يقرأ الدهر التهاني
يا عزيز القطر رب السيف ثم الطيلسان
يا ابا العباس يا من لك يعنو الثقلان
سد تلطف جد تعطف مر تصرف في الزمان
فلك الله حفيظ وبك الاحسان دان
انت ما بين الملا في دهرنا ورد الجنان

بك مصر قد تسامت وبالجالٍ حسانِ
واستنار الثغر لما لاح فيه الفرقدانِ
ركبا الفلك وآبا بسلامٍ وامانِ
يا لهُ يوماً سعيداً كان يوم المهرجانِ
اقبلا والناس تدعو بفؤادٍ ولسانِ
فاعتبرنا ذاك معنى من معاني رمضانِ
بركات الشهر تمت وبها نلنا الاماني
وصلا للثغر ارّخ فاضاء القمرانِ
١٨٨٧ ١٣٠٤

وقال يهنئهُ بعيد الفطر وعيد الجلوس

أهداكَ من خال الخدود شقيقهُ وهداك من قمر السماء شقيقهُ
ودعاك من ربع الحبيب بريقهُ ورواك من عسل المراشف ريقهُ
وشجاك من قلبي الشجيّ اسيرهُ وحماك من دمعي الهنيّ طليقهُ
يا اهل منعرج اللوا عطفاً على صبٍّ تجنبهُ الصفا وفريقهُ
لي بينكم رشأ اغنُّ مهفهفٌ طاوي الحشا لدن القوام رشيقه
رشأ تجافى ظاعناً وظعونهُ اكباد سكان الحمى لا نوقهُ
أوَ ما رايتم كالبخار زفيرهُ فالنار قلبي والبخار خفوقهُ
يا طالما نثر اللآليَ مدمعي حتى بدا بعد الفراق عقيقهُ

أَتراك تنظر أُفق قلبي مظلماً ... اذ لا يفوتك ان سرى عيوقهُ

سرق الدجى من فرعهِ الساجي كما ... سرقت من اللحظ الرشيق بروقهُ

وقضى الهوى ان لاهدى لبني الهوى ... حتى يرد لفرعهِ مسروقهُ

دينار وجنته قضى مجموعهُ ... ان لا يعزَّ بصرفه تفريقهُ

فابتاع حبات القلوب جديدهُ ... واضاع ما ابتاع الجديد عتيقهُ

فتنازعا اهل الغرام وليس من ... قاضٍ يصحُّ لدى القضا تحقيقهُ

قد ملني صبري فكيف يطيقني ... وملتهُ كرهاً فكيف اطيقهُ

وابتزَّني صحبي بهِ والمرء ان ... اخنى عليه الدهرُ قلَّ صديقهُ

قلبي الى حب الكرام اشوقهُ ... ودمي على كسب الفخار أُريقهُ

ويدي الى نيل العلاء امدها ... وثنائي نحو خديو مصر اسوقهُ

توفيق هذا القطر مشكاة الهدى ... فرد الورى سامي الفخار عريقهُ

ملكٌ يحرّك اريحيتهُ الندى ... فيمدُّ قاصدهُ ويفرج ضيقهُ

ان كان ذاك الاصفرُ الوضاحُ يحـ ... ـسبُ سيداً في الدهر فهو رقيقهُ

فلفيفهُ عند الورى مقرونهُ ... ولدى سماح اميرنا مفروقهُ

يرعى الرعية ساهراً فسلاحها ... مطلوبهُ وصلاحها معشوقهُ

والعدل مقرونٌ بعروة حلمهِ ... هذا حريبهِ وذاك رفيقهُ

يا سيداً خذ من رقيقك درَّةً ... هي في القريض بديعةٌ ورقيقهُ

قد قلَّ من وفَّى القريض حقوقهُ ... فلذاك قلَّ مجيدهُ وحقيقهُ

وتكاثر المتطفلون فأَخَّروا ... عنهُ الذين بهم تصان حقوقهُ

لو لم يُهج منهُ اليَّ صبابةً ما لذَّ لي بعد الصفا راووقهُ
لولا صفاتك يا ابا العباس ما حسنت بضاعتهُ وراجت سوقهُ
فاسلم فانت لعصرنا توفيقهُ واحكم فانت بقطرنا فاروقه
فبك استتبَّ نظامهُ وشؤُونهُ وعليك قام غروبه وشروقهُ
واليك كان غدوُّهُ ورواحهُ وبك استطاب صبوحهُ وغبوقهُ
لا غرو ان فاق البلاد بسيدٍ لا سيدٌ بين الانام يفوقه
سئل الزمان بمن ترى توفيقهُ فاجابهم ارخ بذا توفيقهُ

١٣٠٤

تاريخ الجلوس

مصرٌ بعيد جلوس والي امرها تتلو على الايام آية شكرها
ما حلَّ منها ثغرها الا اكي يحلو لدى التاريخ صافي ثغرها

١٨٨٧

وقال يهنئهُ بعيد جلوسهِ

كتم الوجدَ قلبهُ فتكلم حالهُ عنهُ والفؤَادُ مكلَّم
لا يكتِّم متيمٌ وجدهُ اذ ليس يخفى في الناس حال متيم
كل ما خالف الطبيعة لم يجِ لُ لذوقٍ وانما مجهُ الفم
نصبَ القلب للهوى فاراهُ نص ما في كتبَ النحاة تعلَّم
جزمت فعلهُ نواصبُ لحظٍ شارطاتٌ والفعل بالشرط يجزم

يا حليفَ الغرام ما تترجى ... من غرامٍ أودى وأردى واسقم
قال اني بذاك احيا وهل يـ ... ـبتُ حبٌّ الا بموتٍ محتم
ما تلاقي من صدغها غير ما يشـ ... ـبهُ منـــه لعقربٍ او لارقم
قال انا من نفث لسعٍ ولدغٍ ... قد حفظنـــا لجرحنا خير مرهم
كيف يدنيك وجهها ثم لا يقـ ... ـصيك عنها راسٌ بهِ الشعر اسحم
قال هذا ليلٌ وذاك نهارٌ ... حكم طبعٍ والضدّ بالضدّ يعلم
ما ترجّي من لين جسمٍ ولكن ... دونهُ القلب جلمدٌ ليس يرحم
قال فالعمرُ بين حلوٍ ومرٍّ ... ثم للمرء جنةٌ او جهنم
ما ترى في انفاس فيها ومنها ... نفثة الغيظ دونها ثورة الدم
قال انَّا من نفثها قد علمنـــا ... كيف يحيا بالروح ذاك المجسم
ما ترجّي بالوعد وهو وعيدٌ ... بل هو الصدّ للمتيَّم علقم
قال اني بالوعد راضٍ ومن لم ... يجدِ الماء بالزمال تيمَّم
ما ترى حسنها وقد ادركتهُ ... نقطة الخال وهو للخدّ قد عم
قال هذا تتمة الحسن بل هـ ... ـذا الذي افتديه بالخال والعم
ليس للمغرمِ المتيم حقٌّ ... يتقاضاه والمخالف يغرم
كل من قاوم الذي هو اقوى ... منه كان الظمي والفمُ في اليم
ذلك الحقّ طالما قال هذا ... عنهُ شرحاً وذاك انشا وترجم
فهوَ اسمٌ بلا مسمى واني ... نلتقيه وركنهُ كاد يهدم
طلبوهُ بين الورى فرأوهُ ... خير إلفٍ لدرهمٍ وغشمشم

تلكمُ قوّةٌ ولا حقّ فيها　　بل غدت ردفهُ الحقيق المحكّم

وهو كاد الزمان يرديه لو لم　　يحصن بظال مولى مفخم

بالخديوي توفيق بابن عليّ　　بابي العباس العزيز المكرّم

باميرٍ بهِ الامارة عزّت　　وعظيمٍ به الزمان تعظم

حاكمٌ بالقسطاس قام وقد قوّم للقطر　　حكمهُ فتقوّم

تخذَ العدلَ كعبةً لحماه　　فكفاهُ ان ليس من يتظلم

وادار الاحكام يهديه ذهنٌ　　ينجلي من مشكاته كل مبهم

ورآه آل السياسة في مي　　دانها يمتطي اعز مطهم

عاملٌ للذي يراه متمّمٌ　　كل ما حدد الكتاب وعلّم

آمرٌ بالمعرف ناهٍ عن المن　　كر مقص لكل امرٍ محرّم

قد اعزّ القطر العزيز بما ان　　شاهُ فيه وما بناهُ ورمم

نشر الفضل في الرعية لما　　عزّز العلم في البلاد وعمّم

عاهد الامنُ مصرَنا بحماهُ　　وتجلّى السلام فيها وسلّم

فبذكراه بلبل الانس غنى　　وبمبداه قطر مصر تقدّم

لزم الفضل والفضائل حتى　　صار بالفضل والفضائل مغرم

واستمال القلوب انسا اليه　　فشدا باسمه اللسان ودمدم

يدهُ تضبط البلاد ولكن　　لم تكن تستطيع تضبط درهم

قصد البائسون جود يديه　　اذ رأوهُ لجرحهم خير بلسم

يا اميرًا صفاته فوق ما خطّ يراعٌ على الطروس ونظّم

حلمُ معنٍ وجود حاتم طيٍّ ... ونهى جعفر وعفة مريم

لا يلامُ الغوّاصُ في طلب اللؤلوء ان تاه وسط بحرٍ عرمرم

علم الدهرُ انهُ بك يزهو ... فتجلى وثغرهُ يتبسم

وذكرنا بيوم عيد جلوسٍ ... ما بهِ احسن الكريم وأنعم

فقصدنا ناديك والقلب يدعو ... لك بالعزّ واللهى نترنم

ونظمنا في سلك مدحك دراً ... راح يزري بدر جيدٍ ومعصم

فاقتبلها بكراً لها المهر عفوٌ ... وقبول فذاك ما نتوسم

واسمُ واعظم وسد وجد وتوفق ... وافتخر واعتصم وته وتحكم

والتقِ بالانجال ما نتمنى ... وتمتع بحفظهم وتنعم

وقال موَرخاً

مصرُ بتوفيق وعيد جلوسهِ ... سامي السماك مقامها بشموخهِ

احيا المفاخر والمآثر في الورى ... فتشرَّف التاريخ في تاريخهِ

١٣٠٦

وقال يمدحهُ

حسبُ ما نلتهُ كفاك كفاكا ... فتمهل فقد وطئت السماكا

واحنُ عطفاً على موالي المعالي ... فهي تحنو تهيباً لعلاكا

طأطأَ المجدُ رأسهُ عندما عاين ثغر السعود يلثم فاكا

ويد الفخر نمنمت عن سدادٍ ... فوق صحف الزمان آي ثناكا

انتَ توفيقُ مصر بل انت روحٌ　　وهي جسمٌ والجسمُ يحيا بذاكا
قد كشفت الخطوبَ عنها وكانت　　طاهراتٍ منها ذيول رداكا
لم تروّعكَ حادثات الليالي　　فهي قرع العصا لملسا صفاكا
راعها ان رأت يراعاً بيسراك　　وسيفاً تسلهُ يمناكا
قد ذممنا منها البداءة لكن　　ما حمدنا ختامها لولاكا
فبها قد اظهرت فضلك بل اظهرت　　فضل المولى الذي اعطاكا
ورجال الزمان من خوّضوا في　　غمره يتقون فيه الشباكا
موقفٌ هائلٌ وحلبة سبقٍ　　قصدوها فقصروا عن مداكا
جئتها اعزلاً وجاؤا كماةً　　فتولوا وقد لزمت خطاكا
فاتهم أنكَ الكميُّ ولكن　　رأيك السهمُ واليراع قناكا
ولك الهمة البعيدة يغشاها　　انتباهٌ ومقلةٌ ترعاكا
سستَ مصراً بفطنةٍ وسداد　　ورشادٍ كما اقتضاهُ ذكاكا
وكفى ان أيقظتَ رأيك في تدبيرها بعد　　ان انمت هواكا
فحكمتَ القلوب وهو مرامٌ　　عزَّ نيلاً بل لم ينلهُ سواكا
فرأينا لواءها وهي لم تعقـدهُ　　الاَّ على وثيق ولاكا
ورأينا ولاءها وهي لم تظللهُ　　الا بظل مجد لواكا
يممت ربعكَ الوفودُ بيومٍ　　ذكروا فيه فضل يوم ارتقاكا
يومَ رامَ الاله توفيق مصرٍ　　فحباها التوفيقَ اذ ولاَّكا
ينقلُ البرقُ بين شرقٍ وغربٍ　　تهنئاتٍ تُزجى الى علياكا

وخطوط الحديد تستقدمُ الناس لثغرٍ اضحى بكم ضحّاكا
كلهم أَمَّ قاصداً قصر راس التين شوقاً الى حمى مغناكا
قصر مجدٍ اربي سموّاً على إيوان كسرى وطاول الافلاكا
نشروا كالحجيج فيه جموعاً وفرادى ليظفروا بلقاكا
فتجليت بدرَ أُنسٍ عليهم واستنارت ابصارهم بسناكا
ابصروا المجد والمعزّة والاجلال والفخرَ والبها في حماكا
شاهدوا هيبة الامارة تزدان بانسٍ فكبروا من براكا
واثنوا والدعاء ملءُ شفاهٍ وقلوبٍ والقصد طول بقاكا
حمدوا فيك نعمة الله لما قصروا عن ان يدركوا معناكا
فاحبُ عذراً لناظمٍ لم يطاول فقرُ تمداحهِ سموّ غناكا
واقتبلها مع ذاك بكراً عروساً وشحتها ثوب الجمال يداكا
وتقبّلْ اخلاص من لزم الاخلاص لم يبغِ عن حماك انفكاكا
منيتي لحظك القويم وقصدي فضلك الجمُّ والمراد رضاكا

وقال يمدحهُ ايضاً

يا مليكاً امسى الزمان رقيقا لك والمجدُ صاحباً ورفيقا
كل يومٍ لنا شواهدُ تترى منك عما يصون فينا الحقوقا
تدرك الامر وهو في قبضة الوقتِ اسيرٌ فيلتقيك طليقا
وترى رأيك المصيب بما ينفعُ قطراً اراك بك التوفيقا

ونبرّ الذي تبينت منهُ ... كل صدقٍ ولم تجدهُ عقوقا
قد عرفت الزمان ثم بنيهِ ... فكفيتَ التمويه والتلفيقا
فاذا مثّلت امامك طوداً ... ماد بل دك ساقطاً مصعوقا
وخبرت الرجال خبراً فما من ... ذي مراءٍ يلقى اليك طريقا
اذ نبذت الرحيق منهم جديداً ... وانتقيت الرحيق منهم عتيقا
حفظ الله منك مولى كريماً ... سائداً مالكاً طهوراً شفوقا
وادام الانجال اقمار سعدٍ ... في سماءٍ تفيض فيهم شروقا

وقال يصف الاساطيل العثمانية

تلك الاساطيل فوق الغمر سابحةٌ ... والغمر منها كسهلٍ وهي كالقللِ
دانت لهيبتها الانواء خاضعةً ... فحيثما قصدت حلّت بلا مهلِ
خاضت عباب بحار الارض آمنةً ... عصف الرياح وقصف الرمي بالكللِ
اذا شكت سفن الخصم العنيد ظما ... نزالها اوردتها الماء للدقلِ
وان تشامخ حصنٌ دُكَّ عن أُسسٍ ... ولو تطاول مرفوعاً الى زُحَلِ
تهابها الجن ثم الانس من بشرٍ ... والنسر في الجو مثل الحوت في الوشلِ
هذي قوى الماء فوق الماء ناشرةً ... بند الهلال فصف ما تبتغي وقلِ
وثَمَّ في البر جندٌ من بسالتهِ ... قد طبّقَ الارض من سهلٍ ومن جبلِ
رصاصهم عاهد الموت الزؤام فلا ... يكون مرماهُ الا مقتل الرجلِ
فحيثما صوبوه لم يكن خطأً ... كأنما هو معصوم من الخللِ

وفي الاكف حرابٌ من عوائدها ... ان لا تواصلَ الا مهجــة البطلِ

ان هاجموا جبلاً دكوهُ عن أَمَمٍ ... او معقلاً تركوه باديــــَ الطللِ

تعوَّدوا الكرَّ في ساحاته فغدا ... صاب الوغى عندهم احلى من العسل

وعلموا الضرب لا تشفي مواقعهُ ... والطعن للبيض والخطية الذبلِ

تقودهم قادةٌ للحرب قد وُلدوا ... فلا يهابون وقع الحادث الجللِ

من كل اروعَ ثبت القلب مقتدرٍ ... سميذعٍ غير هيابٍ ولا وكلِ

لهم اذا أُصليت نار الوغى عملٌ ... بالرأي يغنيهم عن كثرة العملِ

وعزَّزوهُ ببطشٍ من بسالتهم ... لدى النزال فصانوهُ عن الخطلِ

اذا انتضوا ابيضاً للضرب واثقهم ... بان يساوي بين الراس والكفل

او اشرعوا اسمراً للطعن انشدهم ... اعلى الممالك ما يبنى على الأَسلِ

يدُ العدالة في متنيهِ قد رقمت ... في حدهِ قد جعلنا منتهى الاجل

وقال في ليلة انسٍ امر باحيائها المغفور لهُ توفيق باشا في قصر راس التين في ١٨ لوليو سنة ١٨٨٩

برجَ رأس التين افتخر وافدنا ... كيف ادركت من زمانك سرَّهْ

أَتراك استنزلت برجَ سماءٍ ... ام تراك ارتفعت فوق المجرَّه

فشموسٌ تجلى فتجلو الدياجي ... وبدورٌ انوارها مستمرَّه

قال اني بيت لآلٍ كريمٍ ... رفع اللهُ في البرية قدرَه

فهو توفيقُ من اعزَّ مقامي ... وأَعزَّ الالهُ في الكون امرَهْ

وهي ذاتُ العفافِ والطهر من امست لعقد النساء في الدهر دُرّه

وهُمُ الأَنجالُ استعزّت بهم مصرُ وكانوا لعين مولايَ قرّه

يا اميرًا احييت ليلة أُنسٍ وبها قد أَثرت بند المسرّه

كنت للدهرِ غرّةً ثم للايّام ايامُك الزهية زَهرَه

وباحياء ليلة الانس كانت لليالي ارّخ لياليك غُرّه

وقال يمدح جلالة السلطان ناصر الدين شاه دولة علية ايران
ويذكر سياحته في اوربا عام ١٨٨٩

كذاك فليستقمْ مجدُ السلاطينِ مجدٌ ترَفّع سيفُ دنيا وفي دينِ

أَعزّ مبناهُ شاهُ الفرسِ سيدها نسلُ الاكاسرةِ الغرّ المياميِنِ

شاهٌ بنصرة دينِ اللهِ معتصمٌ لذاك سُمّيَ عدلاً ناصرَ الدينِ

قيلٌ لمملكةٍ كلٌّ لهيبتها يطأُ طيُّ الرأْسَ من عالٍ ومن دونِ

هذه هيَ الدولة الغرا التي كشفت للدهر عن كل فضلٍ فيه مدفونِ

هذي التي خفقت اعلامُ سوددها في الخافقين وسنّت كل قانونِ

هذي التي شعبها احيا الفخار كما احيا العلومَ بإقدامٍ وتدوينِ

يا خيرَ شاهٍ رعي خيرَ الشعوب فمن يحكيك في خير إحسانٍ وتحسينِ

أَنسيتَ كسرى انوشروان معدلةً ورشدُ عصركَ انسى عصر هارون

أَجلَّك المجدُ بل اجلَّتهُ فغدا وهو الامينُ بحرزٍ فيك مأْمونِ

مهّدتَ للشعبِ سبل النفع مقتدرًا ففاز بالسبقِ في شوطِ الميادين

وكان حبك يجري في القلوب كما · تجري الدماء انتظاماً في الشرايين

أبحته فيض كف بالندى وكفت · ودونه فيض جيحون وسيحون

قصدت زورة ارض الغرب ثانية · لتجتلي كل مكشوف ومكنون

فكنت أنى حللت البدر منتقلاً · بل كنت موضوع تعظيم السلاطين

واخترت حاشية بالامر قائمة · من كل من فضله ينسي ابن زيدون

فرن صيتك في الدنيا وعطرها · من نشره ما سما نشر الرياحين

فدم عزيزاً لعرش حفه شرف · ما غردت ساجعات في الافانين

وقال تاريخاً لسياحته

بشاه إيران دنيانا قد افتخرت · لانها ادركت بالمجد مطلبها

مذ حل في الشرق منهازان مشرقها · ومذ تنقل ارخ زان مغربها

١٣٠٦

وقال يمدح حضرة رئيس وزراء دولة علية ايران

اعز مقامك الرأي السديد · يقوم بنصره العزم الشديد

ومن قرن اقتدار العقل منه · بسامي العزم فاز بما يريد

نشرت لواء فضلك في بلاد · فأعظم فضلك الملك السعيد

سليل أجل أقيال لهم في · تواريخ الورى الأثر الحميد

أكاسرة بهم زهت البرايا · ودان لامرهم هذا الوجود

وكان الشاه زبدتهم وأربى · على ما احسنت تلك الجدود

أَعزّك وانتقاكَ امينَ مُلكٍ لانك في الذي يبغي فريدُ

نعم يبغي لمملكةٍ نظاماً وانت لما ابتغى الرجل الوحيد

ادرتَ سياسةً برشيد فكرٍ فزان فعالك الفكرُ الرشيدُ

وقمت بعبءِ اعمالٍ عظامٍ فصحَّ بسعيك العملُ المفيدُ

وذلّلتَ المصاعبَ عن رشادٍ فطاب القصدُ والنَّهجُ المجيدُ

بعزمٍ دونهُ بيضٌ وسودٌ وقدشهدت بهِ بيض وسودُ

بك الاعجامُ قد فخرت وفازت بما رامت وكان لها المزيدُ

فدمْ للمجدِ والعليا رفيقاً ولا تنفكُّ تخدمك السعودُ

وقال يهنئ جلالة السلطان الاعظم عبد الحميد خان بعيد جلوسه المأنوس

أتلُ للعرشِ آيةَ التوحيدِ بجلوس السلطان عبد الحميدِ

ذكّرِ الكون أنّ في مثل هذا اليومِ احيا الإلهُ جسمَ الوجودِ

بشّر المُلك انهُ خيرُ مُلكٍ يتباهى بخير مَلكٍ سعيدِ

هو فينا خليفة اللهِ يجري امرهُ بين سائدٍ ومسودِ

اودع اللهُ فيهِ روحاً شريفاً يتجلّى من فيضهِ الممدودِ

ودعاهُ الى سرير جدودٍ ليعزَّ افتخار تلك الجدودِ

فأتاهُ والمُلك تنداحُ فيهِ عن غرور دوائرٌ لحسودِ

فاغتدى بعد ان تجلى عليهِ يقرن الفضلَ طارفاً بتليدِ

ضبطت صولجان عرشٍ مجيدٍ　　منهُ كفٌّ لصون عرش مجيدِ
فتوكًّا وهشًّ يحمي بهِ اغ　　نامهُ من هجوم كل مريدِ
وبهِ شقَّ للزمان صفاهُ　　فاسال الصفا من الجلمودِ
وارى أُوربًّا سياسةَ حزمٍ　　اوقفتها على شفار الحدودِ
ذلَّلَ الصعبَ بالرشادِ وأَدنى　　من عظامِ الامور كلَّ بعيدِ
ولديهِ مصرُ العزيزة موضو　　عُ اهتمامٍ بصدق عزمٍ اكيدِ
فهيَ في سلك دولةٍ ذات شأْنٍ　　كفوءادٍ من جسمها وكبيدِ
ولهُ من توفيقها خيرُ من وفى　　حقوقًا بمنهجٍ محمودِ
ومن الشعب المستقيمِ خضوع　　ماعليهِ في حدّهِ من مزيد
وهوَ لم يغضِ طرفهُ قطُّ عنها　　بل نراهُ مطالبًا بالوعودِ
كشفَ المُغمضات كشفًا جليًا　　فتصدَّى لها بعزمٍ شديدِ
حيث اصلى البلقان نارًا تلظَّى　　في حشاهُ وما لها من خمود
وابت حكمةُ المليك المفدى　　أَن تراعي الا نصوص العهودِ
فلذا لم يرُعهُ في دولشينو　　دارعاتٌ لاقتهُ بالتهديدِ
بل ارى اوربا ثباتًا حميدًا　　ناتجًا عن سداد رايٍ حميدِ
فترامت تلك الاساطيلُ في عرض بحارٍ بوعدٍ محدودِ
تلكَ منهُ سياسةٌ اذهلت اربابها بين قائدٍ ومقودِ
وعلى ما مضى يُقاسُ الذي لم　　يمضِ فالامرُ هكذا في كريدِ
فهو يبدا بالحلم حتى اذا ما　　نفدَ الحلم شبَّ نارَ الوعيدِ

وله من رجاله كل شهمٍ عاقلٍ فاضلٍ حكيمٍ فريدِ
وله من شبابنا كل فردٍ باسلٍ أروعٍ شجاعٍ عنيدِ
فهو جيشٌ قد طبّق السهل والحزن بعزمٍ يقدُّ صلد الحديدِ
عوّدوا البيض ان تعالج من اعضا الاعادي تقطيع حبل الوريدِ
مثلما عوّدوا رقاق العوالي ان تعاني علاج شق الكبودِ
فاذا هوجموا فهم كحصونٍ واذا هاجموا فهم كأسودِ
واذا اعملوا البواتر غطّوا ببساط الأشلاء وجه الصعيدِ
ولهم من قوّادهم كل قرمٍ وكميٍّ غشمشمٍ صنديدِ
يحكمون التدبير حرباً وسلماً وبهم قد أُجلّ فخر الجنودِ
ولنا من مختارهم خير غازٍ وسياسيٍّ حاذقٍ معدودِ
كلهم خاضعٌ لامر مليكٍ يتباهى بكل فضلٍ وجودِ
فاذا عُدّت الملوك قصيداً كان منهم في الفخر بيت القصيد
قد نعمنا في ظله وارتشفنا عسل الامن من شفاه السعودِ
فتقبّل يا مالك الامر منا تهنئاتٍ بعيدك المشهودِ
وابقَ للملك آمراً ومطاعاً بين نصرٍ وبين خفق بنودِ
ما رددنا في النظم صدر العجزِ أتلُ للعرش آية التوحيدِ

وقال مؤرخاً

بعيد جلوس سلطانٍ مجيدٍ عرفنا المجد في هذا الوجودِ
به قد قدّس الرحمن ارضاً وألبس عالماً ثوب السعودِ

وقال بنير كم في الدهر ارّخ بهاء خليفتي عبد الحميد

١٣٠٧

وقال يرثي المرحوم سمعان كرم

ما دام للموت يحيا كلُّ انسانِ فالحيُّ والميتُ في الاحكام سيانِ
هذا يعيشُ ليقضي بعدُ في زمنٍ وذاك يقضي ليحيا بعد ازمانِ
والارض لم تطوِ من اجسامنا صوَرًا الا لتنشرها في مظهرٍ ثانِ
هذا لعمرك ناموس الوجود جرى على القياس فكان الهادم الباني
والمرء وهو أَجلُّ الكون مرتبةً يقوم ما بين تهديمٍ وبنيانِ
نشا بنورٍ ونيرانٍ وتهلكهُ تلك الفواعلُ من نورٍ ونيرانِ
والعقلُ بينهما يجري على قدَرٍ حتى يقوم على حكمٍ ببرهانِ
رجا الزيادة علمًا كي يتمَّ بها نقصًا فما نال الا فرط نقصانِ
ما ان رايناهُ يعني البحث مجتهدًا حتى رايناهُ يشكو حرقة العاني
ولا تهجَّم للتفتيش مقتدرًا حتى تراجع وهو العاجز الواني
هي المظاهر ادركنا ظواهرها وانما السرُّ لم يُدرك الى الانِ
وان نكن قد خلقنا للتراب كما هي الجوامدُ او ازهار بستانِ
فما عظائم هذا الكون واعجبا وما المزية من هدمٍ وعمرانِ
هذا الذي حيَّر الافهامَ فاعتنقت مبدا الوثوق بتسليمٍ وايمانِ
إِذَن لنا وطنٌ ثانٍ نسير الى ربوعه لنلاقي خير ديانِ

واسعدُ الناس من للخير يعملُ اذ ... يسعى لأُخراهُ سعي البَرّ سمعانِ

عزيز قومٍ فقدناهُ على عجلٍ ... فانتابنا بعدهُ تقريح اجفانِ

احيا بنو كرمٍ في موته اسفًا ... سودَ الليالي بسكبِ المدمع القاني

واستعظموا نهضة البين القويّ على ... من كان ينهض للقاصي وللداني

واستنكفوا قسوة منه على رجلٍ ... حاكى بلين طباعٍ لينَ اغصانِ

واكبروا منهُ ضنًا بالتجاوز عن ... أجلّ من منّ لكن غير منّانِ

ابكى قرينته وابنيه دمعَ دمٍ ... مثل الشقيقين مع اهلٍ وخلاّنِ

واختار من بين آل الفضل افضلهم ... فألبس الفقرا اثواب احزانِ

قد كان باهي المزايا ما لهُ شاني ... سمحَ البنان رفيع القدر والشان

داني العطايا نقيّ القلب طاهرهُ ... مهذبَ النفس في سرٍّ واعلان

سعى الى الخير مطبوعًا عليهِ ولم ... يحجم مدى العمر عن نفعٍ واحسانِ

وشاد لله ابياتًا تقوم على ... اركان خيرٍ فكانت خير اركانِ

فكم لهُ بجميلِ الفعل مأثرة ... تديم ذكراهُ تشنيفًا لآذانِ

وكم لهُ بيننا من صنعهِ اثرٌ ... يحيا بهِ وهو مهمازٌ لاقرانِ

مضى الى الله يبغي والشفيعُ لهُ ال ... فعلُ الجميلُ ثوابًا بعد غفرانِ

وغادر الاهل والاوطان مرتجيًا ... سعادة ورضى في خير اوطانِ

وكلُّ من زرع الاحسان في وطنٍ ... فانٍ لباقٍ جنى ما ليس بالفاني

وقال تاريخًا لضريحهِ

اجرى بنو كرمٍ بفقد عزيزهم ... سمعان فيض المدمع المترقرقِ

قد ضمه جدث سقي من عبرة ال فقرا وغيث الرحمة المتدفق
صرف الحياة بغيرة تركت له ذكرا يرن بمغرب وبمشرق
لما أتم بناء هيكل ربه باجل اتقان واجمل رونق
نادى المهيمن والكتاب مؤرخ قد ابصرت عين خلاصك فاطلق

١٨٨٨

وقال يرثي المرحومة قادين افندي

يا مسيل الدموع ملء المحاجر لاتقيد طليق دمع بحاجر
عبرات سخينة قطرتها نار بين بها تسال المرائر
فقلوب جريحة ودوام وعيون قريحة وسواهر
وقف بالحزن هول يوم علمنا فيه كيف الشموس تاوي المقابر
يوم بين اراش سهماً فأصمى كبد المجد او فؤاد المفاخر
انشب الظفر بالاميرة قادين فادمى وكان بالشمس ظافر
روعته مهابة ووقار فاتاها مداهنا وهو غادر
بل راى النيل يشتكي من نظير فقضى ان يكون دون مناظر
لم يهلها داعي القضاء فابت تطلب اليمن في الجنان الزواهر
تركتنا نملا النواحي نواحاً وهي تلقى في الخلد آي البشائر
سبقتها الى السما حسنات طاب منها موارد ومصادر

وقال يهني المغفور له توفيق باشا بقدوم سمو نجليه من اوربا
الى مصر سنة ١٨٨٩

سعدت ايامك يا مصر وانهل يروّيك القطر
ووفاك زمانك بالحسنى فمضى عسر واتى يسر
وخطبت العليا فافتخرت وقبولك خطبتها مهر
فمياهك مازجها عسلٌ وهواؤك ضمّخه العطر
وجمالك تعشقه الدنيا وترابك يحسده التبر
واتمّ الله لك النعمى باميرٍ عزَّ به الدهر
هو توفيق وفّقت به فسما لك في الدنيا قدر
مولى اوصاف معانيه زهرٌ وخلائقه زهر
اولاك العدل وعزّزه فتضارع سرّك والجهر
ووثقتِ بما اولى كرماً ان ليس يصادرك الغدر
نشر الاحسان بطيّ السر فعطّر بالطيّ النشر
ولقيت ببحر مكارمه مداً لا يعقبه جزر
ففؤاد بنيك له يدعو والثغر بذلك يفتر
والبشر اناخ مطاياه بحماه وحملها الشكر
واتاك بيوم موعودٍ فتحٌ يتقدّمه نصر
يومٌ قد حلّ به الاسعاد فعزّ به هذا القطر
يومٌ فيه بسمائك قد بزغت شمسٌ وكذا بدر

نجلا مولاك ابي العباس فذا بحرٌ وهما الدرُّ

غابا عامين يزينهما ... علمٌ يزدان به الفكرُ

واليوم بمصرٍ قد بزغا ... وسماؤُهما المولى البرُّ

فاهنأ بقدومهما واطرب ... وافرح وافخر ولك الامرُ

ما قال الناظمُ مذ حلاَّ ... ارِّخ حلاَّ فحلا الثغرُ

١٨٨٩

وقال يمدحهُ ويهنئهُ بعيد الفطر

هذي سماؤُكِ يا شموسُ فأَشرقي ... وهناك ارضكِ يا رياض فأَورقي

وهنا مقامك يا عظائم فارعدي ... وهناك ركناك يا سعودُ فأَبرقي

يا برجَ راس التين حيَّاك الحيا ... وسقاك من سلساله المترقرقِ

فبك المفاخرُ قد تأَلَّفَ شملها ... حتى لقد أَمنت طروء تفرُّقِ

وبك المكارم قد تأَلَّقَ نورها ... حتى استنير بنورها المتأَلِّقِ

ولكم به آل المعالي موطنٌ ... يربو على كيوانها والابلقِ

ولديكمُ آل العظائم مربعٌ ... يزهو بمغرب ارضنا والمشرقِ

وامامكم في صرحه المرفوع يا ... شعراءُ خيرُ معظَّمٍ وموفقِ

فدعوا التغزُّلَ والنسيب بغادةٍ ... فتَّانةٍ وبأَغيدٍ متملقِ

واستخدموا اقلامكم بمديحِ من ... دانت لهُ العليا بكل توثقِ

هذا اميرُ القطر توفيقُ الملا ... ذو المكرُمات الاروعُ البرُّ التقي

حسنت خلائقه فكان جزاؤه ... ميل الفؤاد له وحمد المنطق
آراؤه غير الحقيقة لم تصب ... وفؤاده غير التقى لم يعشق
ومسيره لسوى الهدى لم يتجه ... وبنانه لسوى الندى لم تخلق
وجلا بها سحب الحوادث بعدما ... كانت لدينا كالسحاب المطبق
هي حكمة عمرية قد حققت ... آياتها في حكم كل محقق
يستدرك الاقصى بثاقب فكره ... وبعزمه يدرا الخطوب ويتقي
والشيء يدمجه بموضعه كما ... خير الرجال الى المظائم ينتقي
ويغير الاشياء في اوقاتها ... وهو الصواب ونهج كل مدقق
لله يا توفيق مصر فما الذي ... نرجو ولم تسمح بكل تشوق
عفواً ابا العباس فالاقلام لا ... تقوى على ايفا الثناء الاصدق
لطفاً ابا العباس فالاقبال قا ... ل لك الثمن ثغري وقبل مفرقي
مهلاً ابا العباس في سلك العلى ... فلقد تجاوزت العلى فترفق
إهنأ مع الانجال بالعيد السني ... واسلم ودم وازدد فخاراً وارتقي
ما رن ذكرك في الانام محاكياً ... تغريد اطيار وسجع مطوق
او قال واصف منزل تحتله ... هذي سماؤك يا شموس فأشرقي

وقال يهنئه بعيد الاضحى

إلام ارعى الزهد والقلب هام ... وكيف أخفي الوجد والدمع هام
صبرت والشيء له آخر ... ومبدأ النقص تناهي التمام

فرُدَّ سهمَ اللوم يا عاذلي ... فالقلب لا يحملُ سهم الملامْ
ادركت سرَّ اللوم لكنما ... قصرت عن ادراك سر الغرام
نظرت في اللفظ الى ظاهر ... منه ولم تدرك خفايا الكلام
والفخرُ للحسناء يأتي بما ... يسترهُ اللثامُ لا باللثام
رمادُ صبري في الهوى ساترٌ ... من بهرة الاحشاء نار الهيام
فلا تثر شجوي فيذرى بها ... عنها وتمسي وهي ذات اضطرام
يا ساكني وادي النقا دونكم ... قلوب عشاقٍ مكان الخيام
لا تعدلوا عنها الى مرتعٍ ... تطوى الحشا فيه وتظما السوام
يا جيرةً جاروا على مغرمٍ ... رفقاً بمن على هواكم اقام
ما هبَّ من نجدٍ نسيمُ الصبا ... الا نشقنا منهُ ريّا الخزام
ولا ارتشفنا من فراتٍ صفاً ... الاَّ ذكرنا ماء دار السلام
دائي دواهُ قربكم فانعموا ... بهِ والا كان دائي عقام
ازجيت نجب العيس نحو الحمى ... فهوَّم الركبُ عليها ونام
فلا تظنوا انها رقدةٌ ... تصدُّها الايامُ دون القيام
لكنها لنهضةٍ فترةٌ ... والشيء بالتجديد دانٍ ونام
لا تيأسوا من فضل مولاكمُ ... بل سلموا الامر لرب الانام
فاليأسُ لم يحمد لهُ آخرٌ ... ومنتهاهُ رشف كاس الحمام
ورجلُ الايَّام من لم يهب ... غاراتها الشعواء عند الصدام
والحرُّ في ايامهِ عرضة ... لنكد الدنيا وغدر اللئام

وكيف نوأتى اليأس دون المنى ... وفضلُ توفيقٍ ينيلُ المرام
هذا ابو العباس ربُّ الندى ... أَلطاهر الذيل السريّ الهمام
هذا خديوي مصر من حفها ... برغد العيش وسامي المقام
لكفه يخضع آن الصفا ... يراعةٌ وآن حربٍ حسام
يهمه إنجاح مصرٍ فلا ... ينفك ياتي بالمساعي الجسام
قد عمَّم العدل بتعميمهِ ... محاكمًا تزهو بحسن انتظام
افكارهُ تجلو لهُ ما اختفى ... كالبدر يجلو مدلهمَّ الظلام
يقوم بالحسنى ويولي الندى ... ويلزمُ التقوى ويرعى الذمام
مقامهُ لمن لجا كعبةٌ ... وكفهُ لمن رجاهُ غمام
تزدحمُ الناس بابوابهِ ... ليرتوي من وردهِ كل ظام
وينشدُ المُدَّاحُ لا تعجبوا ... فالمنهلُ العذبُ كثيرُ الزحام
وبيتهُ محطُّ رحل التقى ... كأنهُ البيت العتيقُ الحرام
فهوَ بهِ الابُ الأَبيُّ الذي ... قد زان مجدَ الوالدين العظام
وتلك ذات الطهر فخرُ النسا ... قرينةُ العلياء بنت الكرام
وحبذا الانجالُ من صوّروا ... من معدن الالطاف دون الرغام
يا سيدًا قد رافقتك العلي ... والمجدُ والتوفيق منذ الفطام
اسهرت جفنَ الجد مستنصرًا ... بهمةٍ تكفل حمل المهام
ولم تهب من صولة الدهر بل ... بدرق الحزم اتَّقيت السهام
وكم بدا سحابهُ مطبقًا ... ثم انقضى وهوَ السحاب الجهام

وطالما قابلت من صرفه حوادثاً يشيبُ منها الغلام
فضمنت تبديدها حكمةٌ اغنتك عن إعدادِ جيشٍ لهام
واعتزّ هذا القطرُ يلقى المنى بوجه اسعادٍ وثغر ابتسام
فاهنأ بهذا العيد واسلم وسد وافخر وتِه في كل عيدٍ وعام
وانظر الى منظومةٍ زانها بديع وصفٍ فيك باهٍ وسام
الفاظها رقَّت وقد ضمنت معانياً تفعل فعل المدام
خطَّت يدُ الاخلاص آياتها فاحتكمت في القول كل احتكام
وافتتحت ابياتها بالثنا وخصصتها للدعا في الختام

وقال يمدحهُ عند قدومه الى الاسكندرية

بسمَ الثغر عن صحاح الجواهر وروى الهدب عن مراض النواظر
وانثنى خاطراً بقدٍّ ارانا من سنان الخطار هول المخاطر
واستوى خالهُ على عرش خدٍّ فاقي من شقيقه طرف غادر
فوّقتهُ عقاربُ الصدغ تحميها قسيٌّ من اللحاظ السواحر
وادار الجبينُ منهُ هلالاً علَّم الناظريهِ رسمَ الدوائر
فتن الصب فاتر الطرف منه وعجيبٌ لفاتن هو فاتر
يا لقومي من منصفي من رشيقٍ باتر الجفن عادل القد جائر
يجبر القلبَ بالوعود ولكن لا يفي فهو كاسرٌ غير جابر
قد صبرنا فما لنا وملنا ه فبتنا وما لنا الاجرُ صابر

دلنا دَلُّهُ وذلُّ المعنَّى كيف حكم الضعيف تلقاءَ قادر

فاتَّقِ الله في احتكامك فيه فدلال الجمال هبَّة ثائر

دولة الحسن حكمها كسواها فلك لا يزال في الناس دائر

تتهادى ما بين خفضٍ ورفعٍ سنَنٌ شاملٌ جميعَ العناصر

حسبنا ما مضى فقد اغرقتنا من بلايا الزمان سحبٌ مواطر

فغدونا والله عاهد مصراً باميرٍ اقصى خمول الخواطر

بالعزيز العبَّاس بابن المعالي بحليف الندى بخدن المفاخر

زان مجدَ الاريكة اليوم منه شرَفٌ ينطح النجوم الزواهر

وذكاءٌ لاهوتهُ يشقُّ الروح ليهدي ابصارنا والبصائر

وطباعٌ ناسوتها يسترقُّ الناس فهي الشذا ونشر الازاهر

حلَّ من قطرهِ المعزَّز ثغراً وهو قطرٌ به تحلَّى المرائر

حلَّ فيه حلول روح لجسمٍ فتوالت على النفوس البشائر

زينوهُ بكلّ معنى بديعٍ يشرحُ الصدر او يقرُّ المحاجر

وجلوهُ سرادقاً وقباباً واقاموا اقواسهُ والمنائر

صيروا ليلهُ نهاراً ولكن نوره من سناك والامر ظاهر

فلكَ السعدُ خادمٌ فتحكَّم وبك الفخرُ مستعزٌّ ففاخر

وتعاهد مصراً لاصلاح شأنٍ فهي ترجو وانت ناهٍ وآمر

وتعزَّز بتابعية سلطانٍ حميدٍ لهُ المهيمنُ ناصر

انتَ للدولة العلية ركنٌ ولها من ولاك محض السرائر

لك من مصر خيرُ شعبٍ امينٍ مخلصٍ في بواطنٍ وظواهر
شهدَ الخير في حماك فامسى غصنُ آماله بروضك ناضر
وانثنى شائداً بحمدك يتلو آي نعماك فوق متن المنابر
فأنلهُ ما يرتجي وتقبَّل مدحةً في ثناك صنعة شاعر
غصتُ من وصفك البديع ببحرٍ فلهذا نظمت فيك الجواهر

وقال يمدح سمو عباس الثاني خديو مصر المعظم

أَطلق لطرفِ الطَّرف قيدَ تبصرِ وأَجل بمشهد مصر لحظ تفكرِ
خطبٌ دهى توفيقها فتفطرت من هوله الاكبادُ ايّ تفطرِ
شقَّ القلوبَ فسال مدمعها دماً وطغى فاغرقها ببحرٍ احمرِ
وعدَ الزمان بان يكون مسالماً اخلفت وعدَك يا زمان فكفرِ
لكِ مصرُ من دون الزمان عناية نظرت اليك بنعمةٍ لم تكفرِ
لم يهوِ نجم سناك حتى اطلعت لك في سماء المجد ازهرَ نيرِ
لم يذو غصن علاك حتى انبتت لك خير غصن في حديقة مفخرِ
لم يدبر الاقبال حتى ارجعت لك عاجلاً اقبال ذاك المدبرِ
لم تذرفي العبرات حتى بردّت لطفاً سخينَ المدمع المتحدرِ
لم تشعري بظماك حتى اترعت مرعاكِ من غدق السحاب الممطرِ
لم تفقدي توفيق حتى عوضت لك عنه بالعباس مولاك السري
ان كنتِ امسِ شهدت عضبك مُغمداً فاليوم شاهدت اهتزاز السمهري

او كنت امس لقيت عيشك احمراً | فاليوم فزت بطيب عيش اخضر
او كنت امس رايت ليثك رابضاً | فاليوم فزت بشبل ليثٍ مخدر
او كنت امس وردت ماءك آسناً | فاليوم ذقت صفاء ماء الكوثر
او كنت امس فقدت خير مدرّبٍ | فاليوم قد وافاك خير مدبر
لبيك مصرُ اتاك عباسٌ وقد | لاقى المصاب بحكمةٍ وتصبر
وافاك بحراً فوق بحرٍ فاعجبي | بحرٌ كبيرٌ في السفين الاصغرِ
شهدت بهِ الاسكندرية سيداً | متميزاً برصانةٍ وتوقرِ
فاستقبلتهُ وودعتهُ مضيفةً | جملَ الثنا لدعائها المتكررِ
واحتلّ قاهرةً بموكب عزةٍ | وبطلعة القمر المنير المسفرِ
ومضى الى قصر الاريكة سائداً | والناس بين مهلّلٍ ومكبرِ
حتى اذا وصل المقام بحفهُ الـ | علماء والعظما ورهط العسكرِ
شهروا ارادة سيد الخلفاء سلـ | طان الملا عبد الحميد الاكبرِ
فعلا الهتافُ مع الدعاء وقد دوت | تلك المدافع في لسانٍ مبشرِ
هذا اميركِ مصرُ فرعُ أرومةٍ | طابت وقد نضرت بغصنٍ مثمرِ
غصنٌ لهُ لينُ الغصون لخالصٍ | ولهُ لمن ناواهُ لين الاسمرِ
لك منهُ حلمُ الشيخ في سن الفتى | والمجدُ نشأةُ همةٍ وتبصرِ
سيعيد مجدَ جدودهِ بعظائمٍ | تبني ويبني عن كريم العنصرِ
ويشدُّ أزر التابعية والولا | بسيادة السلطان تاجِ الادهرِ
مولاي يا عباس يا بحرَ الندى | بك مصرُ قد جرَّت ذيول تبخترِ

وكلت اليك شؤونها فتولها . وانظر الى غور الادارة واسبر
ادركت في طلب المعارف غاية . وبها جلوت بهاء ذاك الجوهر
لك من علومك حكمة عمرية . ومن الشباب مضاء حدّ الابتر
والفخرُ في قلمٍ تعزّزهُ ظبى . طيّ الاكف على متون الضمّر
فلك البراعة تجتلي برشادها . بيض المعاني من سوادِ الاسطرِ
ولك الحسام خطيب من شق العصا . وجماجم الاعداء عودُ المنبر
فسُس البلاد وسُد وجاهد واتئد . وارفع وحط ورقّ وانهى وأمُر
واعطف وبرَّ ضعيفها ووليها . وانظر الى عمالها وتخير
ودع المآثرَ دونها الآثار من . متقدمٍ فيها ومن متأخر
وانشر لواء الفضل في اهرامها . ذكرًا لمجدك في جميع الاعصر
واضرب على ذكرى الرشيد وآله . وتلقَّ مني معجزات البحتري

وقال مؤرخًا جلوسهُ السعيد

من ذا يفاخر مصرنا في دهرنا . والله قد كفل الفخار لمصرنا
ادلى ولايتها الى عباسها . فتكفل العبّاس عصمة فخرنا
أرخ الدياجي وجههُ وجبينهُ . خطَّ الزمان عليه آية نصرنا
لا غرو ان عزّ الانام بشاننا . فسمو عبّاسٍ خديوي قطرنا
١٨٩٢ . ١٣٠٩

نبــذة
فيما نظمهُ من المقطَّعات والتواريخ

قال رحمهُ الله مؤرخاً عيد جلوس المغفور لهُ توفيق باشا عزيز مصر سنة ١٣٠٢

عيدٌ تضمَّخ بالعبير ورودهُ ... فشفى صداع زماننا تضميخهُ
قد جاء بالعصر الجديد فان ترُم ... عيداً نؤَرخهُ فها تاريخهُ

وقال مؤَرخاً وفاة المغفور لهُ شريف باشا وزير مصر سنة ١٣٠٤

هذا الوزير ثوى برمس جسمهُ ... والنفس منه في الجنان نطوفُ
من بعد مصر لدى الاله غدا لهُ ... نيل المراحم من نداه وريفُ
فاز الشريف محمد براحمٍ ... تاريخها فوز الشريف شريفهُ

وقال مؤَرخاً وفاة المرحوم جبرائيل شارم السياسي الفرنسوي سنة ١٨٨٦

غادرت يا جبريل شارم ربوعنا ... لتفوز بالعيش الهنيّ الاطيبِ
فقدت فرنسا بارتحالك مرشداً ... يمتاز بالرأْي الاسدّ الاصوبِ
يا طالما ارشدتها بكتابةٍ ... رنَّت بشرق ارضنا والمغربِ
نادتك يا رجل البشارة والسلام لمَ ارتحلتَ بسرعة المترقّبِ
فاجبتها اني لحقِ رسالتي ... وفَّيتُ ثم ذهبت دون تهيبِ
والله ارسل جبرئيل وقال في اا ... تاريخ سلّم ثم بشّرْ واذهبِ

وقال مؤرخاً عيد جلوس المرحوم توفيق باشا سنة ١٣٠٥

بيمن جلوسك المأنوس ضاءت　　شموس السعد والقطر استنارا
ضبطت السيف مع قلمٍ بكفٍّ　　تبدّت للورى نوراً ونارا
وزاحمت السهى حتى تمنت　　لو انّ لاخمصيك غدت قرارا
فصرحك دونهُ إِيوان كسرى　　ودون رحاب دارك دار دارا
بنظم صفاتك الغرا رأَينا　　قوافي الشعر تأْتينا اختيارا
فزاد بمدحك النظمُ اعتزازاً　　وزاد مؤَرخوك بك افتخارا

وقال تاريخاً لضريح المغفور البرنس لهُ حسن باشا المتوفى سنة ١٣٠٥

يا من يزور ضريح ابن العلى حسنٍ　　راعِ التهيُّب فالرحمن يحرسهُ
نجل الخديويّ اسمعيل من طهرت　　صفاتهُ وعلا كيوان مجلسهُ
مضى الى الله في شرخ الصبى اسفاً　　ودانيال النبيُّ اليوم يؤْنسهُ
قد طاب في ارضنا بالمجد عنصرهُ　　وفي السما طاب بالتاريخ مغرسهُ

وقال مؤَرخاً وفاتهُ

اطلقت سهمَ الردى ايدي الزمنْ　　فاصابت بالقضا قلب الوطنْ
هدمت للمجد طوداً شامخاً　　واقامت بيننا طود الحزن
قصفتهُ وهو في شرخ الصبى　　فمنتنا ببلاءٍ ومحن
فشكونا من دواهيها وان　　نحن لم نشكُ دواهيها فمن
ولسان الحال نادى لم يعدْ　　حسنٌ ارّخ فقد غاب حسن

وقال يهنئ دولتلو مختار باشا الغازي بعيدٍ في سنة ١٣٠٥

يا سيّداً جاوز العلياء موطنهُ وساد فينا باعمالٍ وافكارِ
لك اليراعُ وماضي السيف قد خضعا فمن يديك إذن نورٌ على نارِ
هذا اذا ضلّت الالباب ارجعها الى الصوابِ فكان الكاتب القاري
وذاك ان فتحت سوقُ المنون اتى يفري ويبري فكان البائعَ الشاري
يا متبعَ القول بالفعل الجميل لقد امسيتَ موطنَ آمالٍ واوطارِ
ان التهاني بهذا العيد قد هتفت حسبي أُوَجّهُ ارخ نحو مختارِ

وقال مؤرخاً عيد مولد جلالة السلطان عبد الحميد خان سنة ١٣٠٦

لله مولدك السعودُ بيومهِ اضحت لشعبك وهي خير حليفةِ
امرَ المهيمنُ فيه هذا الدهرَ ان ارخ به عبد الحميد خليفتي

وقال وقد سألهُ المرحوم شريف باشا بيتين في مدح سمو اسمعيل باشا خديوي مصر

انت ابنُ مصرَ ومصرُ للدنيا غدت أُمّاً كما قالوا بالاستقراء
فلذا القياسُ اتى بنتجٍ بيّنٍ في انك الدنيا بلا استثناء

وقال يهنئ المغفور لهُ توفيق باشا بشهر الصوم سنة ١٣٠٦

لاقِ شهر الصوم بالتوفيق يا من نرى الدين بتقواه شهد
ثم دم ارخ بمجدٍ سيداً ما تلونا فليصمهُ من شهد

وقال مؤرخاً مولده رحمه الله في سنة ١٣٠٦

بمولدك السعيد اعتز شعبٌ   ونيل القطر باسم الله يجري
وتدعو رفعة الاهرام ارخ   رعاك المجد يا توفيق مصرِ

وقال تهنئة بمولده ايضاً

عيدُ ميلادك السعيدِ تبدَّى   منهُ نورٌ يضيءُ في الخافقينِ
فهو بدرٌ وانت شمس عليه   منكما يبصرُ الورى القمرين
يا مليكاً بوفدهِ وفد التو   فيقُ اكرم بذينك الوافدين
انما انتما أليفا وفاءٍ   دمتما في الاسعاد مؤتلفينِ
وكذا لا برحتما باقترانٍ   ما تبدَّى تقارن الفرقدين

وقال يهنئُ دولتلو الغازي مختار باشا بعيد الاضحى سنة١٣٠٦

للغازي مختارٍ شهدت   بسموّ الصولة آثارْ
وبحكمتهِ وسياستهِ   وضحت كالشمس الاسرار
ان جرَّد بيض بسالتهِ   نهبت بالبيض الاعمارُ
او لاعب سمر يراعته   قضيت بالسمر الاوطار
وافاهُ الاضحى ينشدهُ   مدحاً توفيه الاشعارْ
والمجد يوافق دولتهُ   فيؤرخ هنيءَ مختارُ

وقال يهنئُ المرحوم توفيق باشا بعيد مولده سنة ١٣٠٧

لقطر مصرَ ثغور السعد قد بسمت   بشراً وتهنئةً في عيد توفيقهْ

ونعمة الله قد والته جاعلةً   تاريخ مولد توفيقٍ لتوفيقه

وقال يهنئه بعيد الفطر في السنة المذكورة

تستضاء الاعياد من نور مولى   اكسب القطر كل عزٍ وفخرٍ
فلهذا أنار مذ ارّخوه   عيد فطرٍ بهاء توفيق مصرِ

وقال فيه ايضاً عند مجيئه الاسكندرية في تلك السنة

يتجلّى القطر بمن يجلى   بسماه تجلّي العيوقِ
بامير عزٍ بصدق ابي   بكرٍ وبجزم الفاروقِ
فتسامت مصر به وغدت   تختال ببرد التوفيقِ
والثغر بلقيا سيدهِ   ارّخت افترّ لتوفيق

وقال من مطلع قصيدةٍ لم يتمها

ما وقفنا الا لنرفع عنا   تعباً من فرط الجلوس أَلمّا
يعلمُ المرء انّ في الامر شرّاً   وهو لا يتقيه حتى يعما
قُتل المرء فهو اسمى البرايا   حكمةً ثم همةً ثم علما
مع هذا تراه اجهل مخلوقٍ   وأدناه في البرية حكما
تعلمُ العجماوات ما يتأتى   عنه ضرٌّ فلا توافيه حتما
انما المرء ليس يقصيه ضرٌّ   واذا ما اقصاه اقصاه رغما
هو امرٌ لم يجله العلمُ لكن   ادرك الجهلُ بعض ما منه تمّا

وقال عند زيارة المرحوم توفيق باشا دار البريد سنة ١٣٠٧

يا اميراً عطَّرتَ صدر الوجودِ　　بشذا همةٍ وفضلٍ وجودِ
شدت للعلم والحقوق قصوراً　　شامخاتٍ بل خافقات البنودِ
مثلما شدتَ للبريد بيوتاً　　كان منها تقريب كل بعيدِ
دارُ مصرٍ منها تباهت ولمَّا　　وُفِّقت منك بالحلول السعيدِ
كتب العدل آية أرخته　　ان توفيق زار دار البريدِ

وقال مقرظاً ديوان نسمات الاوراق للمرحوم الشيخ خليل اليازجي

نسماتُ الاوراق ذي ام شمولُ　　ام شموسٌ لا يعتريها أُفولُ
ام عقودٌ من نظم افكار فردٍ　　هي منهُ فرائدٌ وحجولُ
فالقوافي كالطود فيهِ رسوخاً　　انما اللفظ رقةً سلسبيلُ
فهو رب القريض ان قال أَغنى　　بمعانٍ تحار فيها العقولُ
ليس بدعٌ ان جمَّلَ النظم حتى　　قلَّ حاكيهِ والجميلُ قليلُ
فنصيفٌ ابٌ ووردةُ أُختٌ　　والشقيقُ ابرهيم وهو الخليلُ
فرعُ بيتٍ نرى مطايا القوافي　　قد اناخت ببابه لا تحول
واذا ما ابنُ اليازجي لم يقل خير نظامٍ فمن تراهُ يقولُ
ولدينا لفضلهِ بيناتٌ　　وهو ديوانهُ عليه دليلُ

وقال مهنئاً دولتلو مختار باشا الغازي بعيد الفطر سنة ١٣٠٧

وافاك عيدُ الفطرِ ينبي سرهُ　　عن سر ما اولاك فضلُ الباري

لينٌ بلا ضعفٍ واقدامٌ بلا عنفٍ وإقبالٌ بلا إدبارِ
سقياً لمن سماك مختاراً فقد أُوحي اليه فباح بالاسرارِ
فاختارك السلطانُ سلطان الورى لبدائع الاعمال في الامصارِ
فنهجت منهاجَ السدادِ يصونهُ نفث اليراع وصولة البتار
حتى اذا لقيت بك الاوطانُ ما ترجوهُ من عين ومن آثار
قالت عليَّ الفضلُ للباري وسلطاني بتاريخي وللمختار

وقال مهنئاً المرحوم توفيق باشا بعيد الفطر سنة ١٣٠٨

تستنير الاعياد من نور مولى اكسب القطر كل مجدٍ وفخرِ
فلهذا انار مذ أرخوهُ عيد مصرٍ بهاء توفيق مصرِ

وقال يهنئهُ بولده في تلك السنة

لنا بميلاد الامير السري ذكرٌ يحيينا فيحيينا
وخطت الاهرام تاريخه يحيا بتوفيقٍ خديوينا

وقال مؤَرخاً سياحتهُ في صعيد مصر سنة ١٨٩١

اتى لصعيد مصر سعيد عصرٍ بفضل حلول توفيق المعظَّم
تفقد أهلهُ كأَبٍ مريداً صلاح بنيه بل قد كان ارحم
فأَولى نعمةً وازال بؤْساً واذهب غمَّةً وقضى واحكم
واجمل واصطفى وهدى واهدى واجزل واعتنى وبنى ونظَّم

وشاهدَ من رعيته خضوعاً ... واخلاصاً على ودٍ مقدَّم
ومن يملك قلوب الناس يظفر ... بحب الناس وهو اجلّ مغنم
نخذ من شاهد الاهرام معنى ... سياحته التي بالشكر تختم
بكانونٍ خلت منه ليالٍ ... بدا تاريخها وغداً نتمم

وقال في الدكتور بوزي الجراح الفرنسوي الشهير

يا من منيتَ بامراضٍ وادواء ... اليك باريز فاقصد دون إبطاء
يمم حمى الشهم بوزي خير من شهدت ... بفضل حكمته ابناء حواء
فهو الطبيب الذي انست غرائبهُ ... ذكرى ابقراط مع ذكر ابن سيناء
اخلاقه كفلت ابرا السقيم كما ... علومهُ كفلت تحقيق ابراء
امال من لطفه كل القلوب لهُ ... فلم يكن من اعاديه سوى الداء
يشفي اعلاءهُ حالاً فليس لهم ... ان يحسدوا عندهُ مجد الاصحاء
لهُ انامل ان خطت وان عملت ... اتت بما يذهل انقاري مع الرائي
تخوض اقلامهُ احشا الحقائق في ... تدوينها حكمة في سبك انشاء
كذاك مبضعهُ كالبرق في يدهِ ... يستأصل الداء من امعا واحشاء
وقد تخير للتمريض خير حمى ... وخير بيتٍ لاصحابٍ اودّاء
اليك من صنعة الاعراب غانية ... تذيع فضلك للداني وللنائي
فاعذر اذا قصرت وصفاً فقد غلبت ... صفاتك الغرُّ اقلامَ الالباء
وحسبها بيت شعرٍ في الختام حوى ... معنى يبلغهُ الآبا لابناء

خيرُ الاطبا بباريزٍ وخيرهمُ بوزي فبوزي اذن خير الاطباء

وقال فيه ايضاً

كأنَّ عيسى وقد شكَّ الانامُ لدى فقد العجائب مما تفعلُ الرُسلُ
أَوحى الى الشهم بوزي ان يحاكيهم فجاء يفعل في المرضى كما فعلوا

وقال في قلعة بعلبك

يا بعلبك فريدة البلدانِ بعجائب البنيان والاتقانِ
قد انشأُوك عجيبةً كي يعربوا عن قدرة الرحمن بالانسانِ

وقال مهنئاً الكونتس دوبيني قرينة الكونت دوبيني وزير فرنسا

في مصر بوسام انعم عليها به جلالة السلطان عبد الحميد

لله درُّكِ من كريمة معشرٍ جمعت صفات الحسن والاحسانِ
أُولى الكرائم بالمحاسن لم يكن بدعٌ اذا نلتِ الوسام الثاني
فالشمس انتِ حبيت بدر كرامةٍ فبدا لنا في شخصك القمرانِ

وقال موَّرخاً وفاة المغفور له توفيق باشا عزيز مصر

رحلت عن مصر يا توفيق فاضطربت وفاض كالنيل منها المدمعُ الجاري
ندهالها الخطبُ فارتجت جوانبها وغولبت بين اشجانٍ واكدار
رغبت عن وطن ادنى الى وطنٍ اسمى فعجلت في استقراء تسيارِ

أرداك سابع كانون الردى غسقاً　　مؤرخاً في جمادى واحظَ بالباري

١٨٩٢　　١٣٠٩

وقال مؤرخاً قراءة الفرمان الشاهاني بتولية سمو عباس باشا الثاني خديوي مصر المعظّم سنة ١٣٠٩

بشر بني مصرَ من قاصٍ ومن دانِ　　بما تأيد من تعزيز اوطانِ
تعطفٌ من امير المؤمنين على الـ　　خديو عباس في سرٍّ وإعلانِ
فلتابعية صان اليوم معقلها　　بحرز خير امينٍ خير سلطانِ
قام الاميرُ بامر القطر تلحظهُ　　عينُ الخليفة ربِّ الامر والشانِ
حتى اذا ظهرت آثار حكمته　　كالصبح مستغنياً عن كل برهانِ
دعاه سلطاننا فيما نؤرخهُ　　عباس أُهديك بالاخلاص فرماني

وقال مؤرخاً اهداء الجمهورية الفرنسوية وسام اللجيون دونور لسموه في السنة المذكورة

اهدت فرنسا وسام اللاجيون دُنُرْ　　لغصن مجدٍ بدوح الفخر ميّاسِ
خديو مصر الذي هيّا الزمانُ لهُ　　مستقبلاً يوجبُ الادهاش للناس
به الوسام ازدهى فليزدهي ابداً　　مذ ارّخوهُ بفخرٍ صدر عباسِ

هذا آخر ما وقفنا عليه من شعر الفقيد رحمه الله وقد راينا ان نتبعهُ ببعض من منتخبات لمحاته الوطنية توفيةً لفائدة هذا الديوان وخدمة لقراء الجريدة الكرام ودلالةً على وطنية الفقيد واخلاصهِ لهذه البلاد العزيزة التي خدمها بقلمه مدة ست عشرة سنةً ملأَ فيها الاسماع والقلوب وافاض في كل موضوع من مواضيعها حتى لم يبقِ حاجة في نفس يعقوب فضلاً عن غيرها من المواضيع الادبية والفلسفية التي تروق مطالعتها ويجمل ذكرها وتلاوتها والله نسال ان يجعل هذا الكتاب شفيعاً للفقيد في اخراه وان يجزل ثوابهُ ويبرّد مثواه بمنه وكرمه

﴿سنة الاهرام الرابعة عشرة﴾

اللهمَّ لك الحمد على وافر نعمك . والشكر على باهر منَنك . وزاخر كرمك وبعدُ فهذه الاهرام قد اجتازت عامها الثالث عشر وهي بايدي الرأي العام تتنقل . وافتتحت مذ اليوم عامها الرابع عشر وهي عن خطتها الوطنية ومنهجها القويم لا تتحوّل . تفتخر لانها عرفت ما هو الواجب الوطني الجميل ولا تفتخر لانها لم تتم الا بما وجب عليها من هذا القبيل . عاشت هذا العمر وقد أحلها الوطن من مقاماته خير مقام . ولزمت صدق الرواية وضبط ترجمة افكار الراي العام فلم تتهيب عوادي الايام . اخلصت الخدمة في حالتي السراء والضرّاء . وكانت واحدة في حالتي العسر والرخاء . فكافأها الوطن باقبال المشتركين عليها . وكافأها قرّاؤُها بالرضى عنها والميل اليها . ولذلك فهي تقف الان لديهم موقف المعترف بالجميل . وتسأَل لهم التحصن بحرز السلامة والتمتع بالعمر الطويل

وانت ايها القطر العزيز لم تكن من يوم نشأت الا موطنًا لكل غريبة وقد خصتك الطبيعة بما لم تخص به سواك . وانالتك من معاني جمالها ما سمابه مقامك وازدان به بهاك

نسيمٌ عليلٌ وماءٌ سليمٌ وسهلٌ جميلٌ ووادٍ وسيم

وطبعٌ رقيقٌ وودٌّ مقيمٌ وفكرٌ دقيقٌ ومجدٌ قديم

فاشرأَبَّت اليك الاعناق والعيون محدقة وطارت النفوس اليك شعاعًا

والافئدة متعشقة. وانت تنجلي في سماء الامصار انجلاء الشموس. وتتهادى في بحابح فراديس الاقطار تهادي العروس. فأَمَّك طلاَّب العلم والادب لاجتلاء آدابك الزاهرة. وارتشفوا سلسبيل الرشد من ينابيع فضلك الزاخرة فافادوا بما استفادوا اهالي الغبراء. وكان لك مرجع الفضل دون مراء. كما أَمَّك الفاتحون والطمع لهم دافع. فجرى لهم من الشؤُون والحوادث ما ما كان نذيراً لكل طامع. لانك قهرتهم ولا سلاح في يمينك للقتال. وحذرتهم سوء العقبى فانكفأُوا خاسئين دون نزال

ثم توطدت فيك سلطة الخلافة العظمى فتوطد فيك الفخر. وتأَيدت في ربوعك قوى السلطنة العثمانية فتايد فيك المجد والنصر. حتى وفاك عهد مولانا ومولاك. اعني به جلالة السلطان ابن السلطان. السلطان عبد الحميد خان. فازدان بوجوده وجودك. وتمَّ بسعوده سعودك. فهو السلطان الذي انام الانام. على أسرَّة المسرَّة ومهد السلام. وجدَّد ربوع العلوم الدوارس. بما شاد من المكاتب والمدارس. وانام القسط في العباد. ودكَّ صروح الاثرة والاستبداد. فرتع الجميع في ظلال عدله. وارتشفوا سلسبيل احسانه وزلال فضله

وعهدي بك ايها القطر العزيز. انك خير من عرف الجميل وتحصن في جانب عدم نسيانه بالحرز الحريز. فافتخر انك لائذ بخير انسان. واعتبر بان عليك الولاية من خير سلطان. وشد واهر امك بمدحه وثنائه. واسال الله ان يمتع العالم بطول بقائه. امين

ثم انت ايها القطر العزيز قد عرفت احسان المنعم عليك . بما اوصله من سوابغ النعم وفواضل الكرم اليك . من يوم تمتعت بولاية العائلة المحمدية والاسرة المباركة الشريفة العلوية . كيف لا وفضل المغفور لهُ الحاج محمد علي باشا ما برح مطوقاً جيدك بطوق الافتخار . وما برحت مآثرهُ وآثاره فيك رافعة قدرك فوق قدر الامصار . وقد اطردت سلالتهُ الشريفة فيك ذاك المنهاج القويم . فوصلت بك الى سدرة المنتهى ووصلت بها الى الصراط المستقيم . فهي التي غمرتك بمواهب السلطنة وامتيازاتها . وادامت عليك جميل ولائها وتجيد التفاتها . حتى وقفت منها وفيها الى عهد من كان لهُ التوفيق اسماً ومسمى . وهو توفيق الاول ابو العباس خديويك السريّ الاسمى . اميرٌ ابى لطفهُ الا ان يحكم من الرعية قلوبها . وعزيز ابى انسهُ الا ان يسريَ عن قلوبها همومها وكروبها . عدل وحلم فسوى بين الصعلوك والامير . ورحم وكرم فاستوى لديه الغني والفقير . على طبعٍ ارق من نسيم الصبا . وخلق اذكى من عرف الكبا . وعزة يزينها الادب والكمال . ووداعة يصحبها الوقار والجلال

وعهدي بك ايها القطر . انك اخير من عرف للمحسن حسن الذكر فانت ولا مراء عارف فضل عزيزك الهمام . وذاكر له جميلاً كالى بالفخر منك الهام . فهو حاكمك واميرك . وواليك ونصيرك . بل هو الساهر عليك سهر الاب على الابناء . ومواٍن عليك باهر المنن ووافر الالاء . فاشترك معاهر امك في الدعاء بطول عمره . وصون انجاله الكرام ممتعين بكنف وقايته ونصره

ثم انت ايها القطر العزيز عالم بان للايام اسراراً. ولليالي احكاماً واطواراً وان دوام الحال محال. وجلَّ من اختص به الدوام في كل حال. فلا يتولكَ القنوط فتسأَم. ولا تعتصم باليأْس فتندم. بل فتولَّ الصبر ولو على غير مجامر الكرام. واعتصم بالامل ولو مكرهاً حتى تفوز بالمرام. واخلص لولي امرك في سرك ونجواك. وثق انهُ بعين عنايته يرعاك. واطلب من بنيك الذين ربوا في مهادك. وارتووا من مائك وشبعوا من زادك. ان يطأُوا بقدم الهمة كل دنية. ويدفعوا عنك بساعد الحزم كل طارئة وبلية. وان يجعلوا المصلحة الخاصة فدية عن المصلحة العامة. ويحترموا قول الخاصة بعد احترامهم مبدأ العامة

ثم اسألهم ان يكونوا في سبيل الخدمة الوطنية وتراً لا شفعاً. وان يخلصوا في سبيل هذه الخدمة حملاً ووضعاً. وان يترفعوا عن دنايا الامور ويتنكبوا عن طرُق الخطة وتوليد النفور. وان يعملوا ما تستلزم السياسة الحكيمة. ويقوموا بما تقتضي المواجب الوطنية العظيمة. فاذا توثقت منهم بذلك نجوت من المهالك. ونلت وانت الرابح فوائد ما هنالك

نعم انت ايها القطر العزيز علمت ان بنيك أُولي الفطن. قد عرفوا ما هو فضل الراي العام في الوطن. وادركوا ما لهذا الراي الحسن من المآثر والآثار في كل أَين وزمن. فنشأَ فيك هذا الراي رغماً عن الايام. بل بالايام اعتزَّ وبحوادثها نشأَ وقام. وقد علم انهُ ولا حكومة لهُ لا قوام لهُ قولاً ولا فعلاً. وان كل حكومة بدونه لا قوام لها فرعاً واصلاً. فها لازمان

متلازمان لزوم الروح للجسد . وما وراء التباين بينهما الا سقوط لا يرد
فكل حكومة رامت اذلال هذا الراي ارتكبت الخطأ الفاضح . وكل حكومة
اعزته وراعت حرمته اكتسبت الاعزاز والميل الواضح . فجد الراي العام
قائم بحاكمه الهمام . ونجد هذا الحاكم قائم بتعضيد الراي العام . وكل مملكة
انجلت بين الممالك انجلاء العرائس . كان لها هذا الراي قريناً رفيقاً بل كان لها
بمثابة الحارس . فسقياً لك ايها القطر لانك امسيت من عداد هذا الجانب .
وبشرا لانك قد انتهجت من المناهج في ذلك ما تأمن معه غوائل العواقب

وكيف لا يكون لك ايها القطر ما تتمناه وفيك حاكم اعز مقام هذا
الراي وانالهُ رضاه . ولك راي ادرك مقاصد حاكمه المنيفة . واستطلع طلع
نواياهُ الشريفة . فوقف لهُ قلبه وقفاً عز دونهُ بيع وارتهان . واجمع على حبه
مخلصاً لهُ في السر والاعلان . ومتى التأم قلب الراعي مع قلب الرعية نال
الجانبان المرام . وخضعت لهما صروف الزمن وحوادث الايام . فثق بحسن
العاقبة ايها القطر السعيد . وكِل الامر الى من يتصرف في خلقهِ كما يريد
واعلم ان الفرج القريب من وراء الضيق الشديد

ايها القطر العزيز قد حافظت على اهرامك في حماك . فحفظت لك ذكر
مجدك ونطق لسان حالها بعزك وسناك . وقد استنطقتها لتترجم حقيقة رغبتك
فاختارت لك من اسمها ما يقوم بواجب خدمتك . فتقبلت منها ما اختارت
لانها قامت بحق الترجمة السديدة . ووفت بالواجب من ابانة افكار الراي الرشيدة

قالت الاهرام ان مصر من جسم المملكة العثمانية بمنزلة القلب كما ان الاستانة العلية بمنزلة الراس وان مصر خاضعة خضوعاً دينياً وسياسياً باعتبار كونه خليفة وسلطاناً فهي والحالة هذه لا تريد ان تتحوَّل عن هذا الخضوع فمن تراه ينكر عليها ذلك

قالت الاهرام ان لمصر امتيازات معلومة بموجب فرمانات شاهانية شريفة فهي لا تود الا حفظ هذه الامتيازات مصونة من كل خلل فمن تراه يبخسها هذا الحق

قالت الاهرام ان مصر ترى توفيقها بحفظ سمو توفيقها وانه النائب الشرعي عن جلالة سلطانها فهو حاكمها العزيز وخديويها الفريد واميرها المجيد وقد اخضعت لهُ فوأادها ووكلت اليه امرها ومرادها . فمن تراه يخطئها في هذا الاعتقاد

قالت الاهرام ان مصر لا تنكر فضل من احسن اليها ولكنها تروم حفظ استقلالها كما انها تروم ان ترى للوعد بذلك انجازاً . فمن يلومها على ذلك

قالت الاهرام ان مصر ترى حالة الزارع قد ساءت فسقط تحت اثقال المطالب ومني ببيع اطيانه فامسى ماجوراً بعد ان كان مالكاً والطين للفلاح بعقام الولد فلا حيلة الا بتوحيد الدين العام وتخفيض معدله ليكون من وراء ذلك ما يكفي لتخفيض الضرائب وغيرها والا ساءت المغبة . فمن تراه ينكر عليها هذا الطلب العادل

قالت الاهرام ان مصر تشكو من توزيع السلطة فهي لا يمكنها ان

تبرم امراً او تنقضه الا بعد ان تستشير وتسترضي سبع عشرة دولة ولا يخفى ما وراء ذلك من المضرة. فمن تراه لا يصوّب شكواها

قالت الاهرام ان مصر ترى ان حفظ كل بلاد يقوم بقوة جيشها وهي مع ضرورة هذه القوة تشاهد عدم الالتفات الى تكثيرها وزيادتها فمن تراه لا ينظر ما نظرت وهو عادل

قالت الاهرام ان مصر تصرح ان السودان لا تتركها ولو تركتها وان لا راحة لها منها الا باعادة افتتاحها ولكن بقوة جيشها لا بقوة اجنبية اكي يكون لتمتعها باستقلالها نهاية قريبة معلومة. فمن تراه ينقض قولها هذا غير من لهم في جانب السياسة غرض او من لهم من تشيعهم الاعمى مرض

قالت الاهرام ان مصر تعتبر صالحها المالي صفراً في جانب صالحها السياسي وما دام الثاني مهملاً فلا راي لها في الاول اذ ماذا ينفعها الغنى بعد الموت. فمن تراه يعقل ويرى غير ذلك

ذلك بعض ما قالته الاهرام نكتفي به رعاية لضيق المقام فمن تراه لا يسلم بانه حقيقة ما يقوله الراي العام بل كيف لا يكون وهذا الراي قد احل الاهرام محل القبول والرضى فاقبل عليها عفواً لانها ترجمان افكاره بصدق واخلاص وتهادت لديه مفتخرة بكونها لم تنتحل اسم كبير تتستر به في سبيل ايقاع الوهم على الناس ليقبلوا عليها. ولا لاذت بحمى الوشاية والوقيعة والدسيسة لادراك غاياتها ولا لجأت الى ذي سلطة ليصحبها بافادات رسمية او غير رسمية لتنال القبول كأنها فرع من فروع الضرائب الميرية وما شاكل ذلك

مما سناتي على بيانه بالطويل العريض بل تحبب اليها بنو الوطن لصدقها في خدمته ولا فضل لها بذلك فان وطناً شربت من مائه . واغتذت من غذائه واستظلت بسمائه . وولدت في مهده . ودرجت في عهده . وشبت في رفده لا يليق بها ان تخونه فتجزيه جزاء سنمار ولا مشاحة ان الانسان اسير الاحسان

فثق ايها الراي العام ان الاهرام ملازمة خدمتها اياك . بما تعودت من الصدق والاخلاص وحرمة ولاك . وهي واثقة بانك ملازم الميل اليها والاقبال عليها . وانك مشترك معها في الثناء . على مكاتبيها الادباء . الذين واصلوها برسائلهم الرنانة مشتملة على الفوائد الغراء . وعلى وكلائها النشيطين الذين قاموا بخدمتها خير قيام . وافتخروا بكونهم بما عملوا انما خدموا الراي العام

وانت ايها القطر العزيز ارفع اكف الابتهال . واسال رب الحول والطول والجلال . ان يحفظ جلالة الخليفة مولاك السلطان عبد الحميد خان من بوائق الحدثان . ويجعل ملكه موطد الاركان مؤيد البنيان . والوية جنده معقودة بروة النصر . وبنود سعده خافقة في البر والبحر

واسأله جل شانه ان يديم توفيقك بادامة سمو توفيقك العزيز . وان يجعله من صروف الدهر في حرز حريز . ويذلل امامه الصعاب . ويسدد قدمه الى الرشد والصواب . وان يصون حضرات انجاله الفخام . ويمتعه بوجودهم في ظلال العمر الطويل والمسرة والسلام . ما لاح بارق وفاح مسك الختام . آمين

﴿ ولئن تركنا السودان فانها لا تتركنا ﴾

هي جملة سطرناها في الاهرام من يوم جزمت انكلترا بفسخ السودان عن مصر وجعل حدودها وادي حلفا وكان ذلك سبباً لاستقالة وزارة المرحوم شريف باشا وهي الوزارة الاولى بعد الحوادث السالفة ثم لم تطل الايام حتى حققت الحوادث مآل هذه العبارة فاعدنا تدوينها المرة بعد المرة . وقد مرّ بنا الى الان ستة اعوامٍ ولم ينقض هذا المآل وستمر بنا الاعوام التالية تباعاً ولا ينقض ايضاً ما دمنا والسودان على ما نرى

ولقد قال المثل العامي « الف عدو في خارج البيت ولا عدو في داخله » وهو الحكمة بعينها فان ما يقوى العدو الواحد على تخريبه وهو في البيت لا يقوى الاعداء العديدون على مثله وهم في الخارج وليس يخفى ان البلاد السودانية من مشتملات مصر بالطبيعة فقد اكتسحتها من نحو نصف قرن واقرت احكامها فيها ونشرت اعلامها فوق اغوارها وانجادها وفتحت لها ابواب الاتجار والتعامل ومهدت سبل صلاتها معها واقامت المواثيق والعهود بين قبائلها في جنب طاعتها وسنت لها الشرائع والقوانين وما ضارع ذلك . ثم بدا من امر تلك البلاد ما يغني قرب عهده عن شرحه فما عتمت مصر ان اعلنت سلخها عنها وقد استظهر رجال رؤساء الثورة على رجالنا فغرهم منا ذلك وجرت في عروقهم حميا النصرة فحملوا ما كان على ضعف مناواتخذوا المبادىء الدينية قاعدة لاعمالهم ورأوا العساكر الاجنبية تقاتلهم فتعززت

كلمتهم لدى ذويهم بما ادعوه فقاموا على ساقٍ وقدم يناصبوننا من جهة النيل ومن جهة البحر الاحمر

ذلك هو ملخص ما جرى لنا مع السودان ولم نتبين في ما اوضحه الامرون بسلخها عن مصر الا امراً واحداً وهو ان بقاءها من مشتملات مصر يستلزم بذل النفقات الفادحة التي ليس من ورائها جدوى . واننا لا نتعرض في هذا المقام الى ما اظهره الغير من العلل والاسباب التي ينويها الامر بالسلخ فان ذلك ليس من شاننا الخوض فيه الان ولكنا نحول وجه البحث الى احكام حاضرنا بمراجعة ماضينا لادراك مستقبلنا ولا مراء ان الراي العام واثق كل الثقة بان المسالة السودانية انما هي في مقدمة جميع مسائلنا السياسية والمالية بل هي بمثابة خلاصتها وزبدتها . ولذلك كان البحث فيها للتوصل الى ما يكفينا شر غوائلها من اهم الابحاث الحاضرة وهو موضوع بحثنا هذه فنقول

لا يأمن متجاوران من تعدي احدهما على الاخر الا بواحدٍ من امرين اما موازنة القوة بالعدد والعدد وما يستلزم ذلك من اقامة المعاقل والحصون . واما ارتباط المواثيق والعهود كالناموس المرعي لدى الدول جمعاء وهو مبدأ النظام العام . واذا لم يكن احد الامرين فلا سلام بين المتجاورين وهذا هو شان مصر مع السودان ليس بالنظر الى ذلك فقط بل بالنظر الى ما اتخذ من الاحكام التي تستلزم بالطبع عدم الوفاق واليك البيان

ليس من يقوى على الحكم بكون السودان تسمو مصر قوة او توازيها بل كل يسلم بان مصر اقوى من جميع الوجوه التي لا يحتاج القارئ الى شرحها

وقد كان المبدأ يقضي بان تخافنا لضعفها ولكنا نراها عاملة على مناصبتنا ونحن مع قوتنا نريد مسالمتها والانكفاء عن منازلتها ولا يتم لنا ذلك. وهذا هو مآل الجملة التي صدرنا بها اللمحة. ثم لو تنازلنا عن هذه القوة واردنا ان نعاملها معاملة الضعيف للقوي بعقد المعاهدات وابرام المواثيق لما تسنى لنا ذلك ايضاً وما دمنا ملازمين ومنتهجين خطة ماضينا وحاضرنا استوت معها حالة مستقبلنا وثبت قولنا بان المسالة السودانية ان هي الا نشيد شيطاني لا قرار له

تركنا السودان بعد استظهارها على رجالنا وبعد ان قام فيها المتمهدي وخليفته والغني والنخاس وشيخ القبيلة وصاحب الكلمة النافذة وبالتالي بعد ان انتشرت الفوضى في ارجائها وعاهدها الفقر المدقع ولا يخفى ان تلك البلاد قائمة بتجارة العاج والريش وغيرهما فسدت ابواب الاتجار عنها فازداد فقرها ومن عضه الفقر بنابه ولا رادع لهُ من نفسه او من نظام اخر شحذ غرار العزم على مسن المعصية ولاسيما اذا استصرخه دعاته الى حيث لهُ من جهله دافع ومن ميله نازع وذلك هو شان الرحل القائم معاشهم بالغزو للغنيمة والسلب. واذا تبين ذلك وجب ان لا نتوقع من السودانيين غير ما بدا منهم الى الان ولن نتوقع الا استمرارهم على ملازمة هذا المنهج وكيف يتسنى لنا ان ندفع شرهم عنا وليس بيننا وبينهم من شوائخ الجبال الصعبة والمسالك وانبساط البحار البعيدة المرامي ما يكفينا موُونة هجماتهم وطوارق غدواتهم وروحاتهم ومن تراه يقوم ازاءنا من روَسائهم ويواثقنا على الاخاء والموادة والوئام ولو جار علينا في المطالب وسامنا الخسف والضعف — ذلك ما ليس

لهم ليكون لنا والناقص بنفسه لا يكمل غيرهُ فلا حيلة لنا معهم بالترك فلئن تركناهم فانهم لا يتركوننا

واذا قيل ان لنا من حاميتنا المصرية ما يدفع عنا نوازلهم قلنا ان هذا موضع البحث فكلنا يعترف ببسالة جنودنا وشجاعتهم وصبرهم على المقاتلة وطالما قام الاهرام بنشر هذه الصفات لجنودنا عكساً لما رمتهم به بعض الجرائد الاجنبية ولكن ما الفائدة من الصدم والصد في حين ليس للهجوم نهاية اذ قد قضينا بان نلازم الدفاع دون ان نتقدم خطوة وقضى السودانيون بملازمة الهجوم وعدم الاكتراث بالصد وليس دوننا جيش منظم لنقتص منه بموقعة او اثنتين حتى لا تقوم لهُ بعدها قائمة بل امامنا زمر واخلاط وسلبة وقطاع سبل نطردهم من هذه الجهة فياتوننا من تلك الناحية ونقتل منهم العشرة فيتجدد العشرون بالاعتياض ولا يجب ان نعتبر فقد الواحد من المصريين بموازاة العشرة من السودانيين فنحن نشعر بفقد الواحد منا واما اولئك فلا يشعرون بفقد العشرة ومن تراه يجهل ما وراء ذلك من الخسائر المالية المتتابعة لما يحتاجه الجندي الشاكي السلاح القائم بالمدافعة المستمرة من المؤونات والذخائر والميرة وما شاكل ذلك فصرنا والحالة هذه الى ما هربنا منه بل الى ما هو اشد وانكى وامامنا مستقبل مجهول لا ندري مصيره

فمما ذكر يعلم القارىء داء المسالة السودانية باسبابه وعلله ويدرك تشخيصهُ وتمحيصهُ ثم يعلم ان العلاج المستعمل لهُ لا يقوى عليه بل يطيل عهده ولكن ليس من وراء ذلك شفاء واحرِ به ان ندعوهُ داءً صدرياً لا

يلبث ان يتمكن فيمسي سلاً في درجته الاخيرة ولذلك وجب ان ننقب لنتوصل الى العلاج الشافي قبل ان يتعاصى الداء عليه . وانا موردون في هذه اللمحة ما عن لنا في هذا الشان ولعله لا يخرج عما يراه الراي العام ايضاً فان الغاية من كل ذلك انما هي راحة مصر ولا راحة لها والمسالة السودانية على حالتها المعلومة واليك البيان

لقد تقرر ان السودان لا تتركنا وان تركناها ومن المسلم به ايضاً ان مصر اقوى من السودان بما توفر لها من المعدات وسهولة النقل فضلاً عن نظام الجيش

واذا كان ذلك فالدواء الوحيد لهذا الداء اذن انما هو معاودة افتتاح السودان واخضاعها لسلطتنا ولا ننكر ان ذلك يستلزم امرين مهمين اولهما توفر المال والثاني توفر الجند والامران متوفران لدينا اذا اردنا فان مسالتنا هذه متعلقة بالارادة لا بوجود المطلوب فالاولى غير حاصلة واما الثاني فحاصل فاذا اردنا كان لنا من وجود المطلوب ما ينيلنا واسطة تلك الغاية والا فلا

فاما توفر المال فقد حصلنا عليه وهو تلك القيمة المهمة التي خصصت للمسالة السودانية وقد انفقت ولم تتحول هذه المسالة عن مركزها الاول فكاننا اضعناها سدى ومع ذلك فاننا لا نزال في مقام يتيح لنا توفر ما يفي بالحاجة مع الوقت للاسباب التي سنوردها عقيب ايرادنا مطلب الامر الثاني وهو توفر الجند

فاما هذا المطلب فلا يحتاج الى تدقيق وشروح لان القطر المصري يمكن

ان يكون له مع السهولة التامة جيش مؤلف من ١٦ الف جندي يؤخذ من ذلك اربعة الاف للخدمة في البر ويعين الاثنا عشر لافتتاح السودان

وافضل طريقة لذلك وضع هذا الجيش بقيادة ضباط مصريين محنكين قد خبروا السودان وحكموها وعلموا مواقعها وعرفوا قبائلها وطباع اهلها ويجب ان يتخذوا طريقة الافتتاح بالقوة والحكمة ذلك انهم والحدود الان وادي حلفا يتربصون فيها مكاشفين القبائل التي امامهم فهي بين مصافية فدواؤها الاعزاز والاكرام لتتأيد بالاخلاص وتزيد في قوتنا وبين متذبذبة ودواؤها التمليق والاستمالة لتأمن فتنقلب الى حيث القوة متسلطة . وبين عاصية ودواوها الانذار فان اطاعت فيها والا فالحسام . وبعد التأني والوقوف على الخبايا تنتقل القوة المصرية الى مركز اخر في الداخلية وتكون تخوم مصر حيث تكون جيوشها وبالاستقراء تتقدم شيئاً فشيئاً حتى بربر فدنقلة ثم تعمل الى ان تصل الى الخرطوم

وليس من ينكر ان هذه الطريقة لا تجعل العساكر المصرية عرضة للخسارة ولا تزيد في النفقة المالية قيمة فاحشة بل تحفظ الجيش مصوناً من الطوارق لانه لا ينقل القدم الا متى امن الزلق فهو بحكم مدافع في حين هو مهاجم

وقد ثبت لنا ان النفقات المخصصة الان للحدود لا تجدينا نفعاً فاذا كانت قليلة فهي بالنظر الى استمرارها وعدم فائدتها كثيرة فاذا اضيف اليها ما لا يتعذر على الحكومة اقتصاده من ميزانيتها امكن تأليف هذا الجيش وهو

متى تمكن في السودان افاد الحكومة افادة مادية تعوض عليها ما انفقته عليه ذلك فضلاً عن مكاسب التجارة التي لا يجهلها المصريون وقد شعروا الان بخسارة فوائدها ومنافعها

ثم ان لنا من ايصال الجيش المصري الى العدد المذكور ومن وضعه في النظام الذي اوضحناه فائدة مزدوجة وهي تعزيز القوة الوطنية من جهة وامكان الاستغناء عن جيش الاحتلال من جهة اخرى وان في الثانية وسيلة عظيمة لتوفر المال وهو مطلبنا الاول لان ما تدفعه الحكومة المصرية على جيش الاحتلال الان تحوله الى ميزانيتها الحربية للانفاق على جيشها الجديد فيتوفر لها بذلك مبلغ معتدل ولا نظن ان الدولة الانكليزية تأنف من هذا الامر ما دامت ملازمة قولها بوعودها من نحو الانجلاء

ومن تذكر علم ان حضرة صاحب الدولة الغازي احمد مختار باشا قد اشار بذلك في تقريره المهم عن السودان وهو ذاك التقرير الذي نشره الاهرام مجملاً ومفصلاً وظهر فضلهُ للجميع الا لذي الغرض وان ما اتينا به الان ان هو الا من فضلات ذاك التقرير فاننا كيفما قلبنا المسالة لا نرى لها وجهاً افضل من ذلك كيف لا وان لنا في الحوادث الاخيرة اعظم برهان فهذا ولد النجومي يهاجم حدودنا بعد ان استراحت مدة وكنا ذكرنا في لحتنا الاولى عن السودان خوفنا من مثل ذلك بناءً على راحة افكار السودانيين من جهة الحبشان بعد ان انتصروا عليهم ولم يمر على قولنا اذ ذاك الا ايام قليلة حتى ظهر ولد النجومي بطليعة ٣٥٠٠ رجل

اجل ان عساكرنا الباسلة استظهرت عليه ودافعت اشد الدفاع ومابرحت توافينا الاخبار مشيرة الى تضعضع عسكره وانحطاطه ولكن ما فائدة ذلك يا ترى فهب ان القوة المهاجمة الان انقرضت عن بكرة ابيها وقتل قائدها او اوأُسر فهل انقرض السودانيون وداخلهم الملع والخوف وهل ليس لديهم ولد نجومي آخر

بلى قد دلنا الماضي على اننا كلما شتتنا شمل طليعة منهم وافتنا طليعة اخرى بعد فترة من الاولى وقد مر بنا العامان والثلثة والاربعة والحالة واحدة وسيكون لنا في المستقبل ذلك ما دمنا ملازمين خطتنا . وان هذا يقود الى استمرار احتياجنا للجيوش المحتلة لتاخذ بيد حاميتنا القليلة العدد عند تكاثر المهاجمين كما جرى لنا في هذه المرة وفي غيرها ايضاً

نتج مما ذكر ان رعاية المنهاج المعلوم في المسالة السودانية ليس من ورائها نهاية وبالتالي ليس لاحتلال الجيوش الانكليزية نهاية وذلك ما لا يناسب صالح مصر وانكلترا فرجونا والحالة هذه من رجال الحكومتين ان يروا في انجع الادوية لهذه الادواء والله من وراء التوفيق

﴿ نفحات اللمحات ﴾

(في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٨٩)

اي فلاح مصر . مهلاً فتلك ظنونك قد حققتها الايام والحقيقة لا تفل اشفار مرهفاتها . وصبراً فهاتيك اللمحات الناطقة عن خاطرك قد صدقت عليها الحوادث والعدالة لاتثلم اسنة سمهرياتها . وعذراً من العود الى ذكرى اللمحات

ومواضيعها فقد ضمختها انفاس سمو اميرك فما لبثت ان تنسمت عاطر نفحاتها فسقياً لمن اولتك مكارمهُ حسنات اصابت من فؤادك مزدرعاً خصيباً يقوم بانماء نباتها

اي فلاح مصر . ادناك عرفانك فضل اميرك عليك الى التشرف بملازمة طاعته . فاقصيت فضلات الشبهات عنك . وابعدك وثوقك بميل عزيزك اليك عن انكار شرف غايته . فادنيت بركات الاحسان منك . فبادر الى شكر يديه ايفاءً باحسانهما اليك . واحيِ الجميل بالذكر قياماً بالواجب عليك . فقد برهنت الايام على ان اميرك لا ينفك يهاديك بوادر التفاته . كما برهنت على ان حالتك تستدعي من حاضر فضله بادي تعطفاته . وقد عرفت يا فلاح مصر بانك تعرف قدر الجميل ومن به اتاك . وانك لا يضيع عندك المعروف ولا يانف من الاقرار به فؤادك وشفتاك

اي فلاح مصر . قلت بلسان اللمحات ان فضل اميرك قد نقلك الى حالة الحضارة فتقدمت التقدم الادبي . وان هذا الانتقال يستلزم بالطبع ان يقابل بالتقدم المادي . وان الفرائض التي رسمت على ارضك تربو على تعديل نتاج الحاصلات . لانها رسمت في ايام يذكرنا حاضر نتائجها بمصادرة ما فات . وان الثلاثين بارة التي تبقى بعد الكدح لكل فرد . لا تضمن لهُ حاجة يومه ولا تكفل اثراءه في الغد

اي فلاح مصر . قالت اللمحات عن خاطرك ان الدين اثقل الغارب . فتحملت تحت وقره متثاقلاً ومغالباً ولكن كان هو الغالب . وان ليس لك الا

تحسين الزراعة ليفر لك الحاصل . وتستخدم ما وفر في سبيل عاجل لتحسين آجل . وان امامك من نجو نفسك واجبات تستلزم الانفاق . ولا قبل لك بها دون الحصول على الصفر الرقاق . وان الزراعة وحدها تقصر عن ان تكون لنداك السميع المجيب . دون ان يكون لك من موارد التجارة والصناعة ومصادرهما اوفى نصيب . وان على ولية امرك النظر في تخفيف الاثقال . على قدر ما تسمح لها به ظروف الايام وحوادث الليال . فهل نراك اخذت في العمل الواجب عليك . وهل اخذت ولية امرك في رعاية حالتك والالتفات اليك

اي فلاح مصر . اجل لا اراك الا وقد تنبهت الى ما سالتك اللمحات ان ترعاه . بان تحسن زراعتك اولاً ثم لا تقتصر على موردها دون ان تستعين بمورد اخر سواه . اذ لم يقض عليك العدل ان يلازمك الفقر والافلاس . وان تعيش بالتقتير والكفاف صاغراً مكدوداً من دون الناس . بل لك ان تكون في بسطة من العيش فترتشف ماءك هنياً . ولك ان تتمتع بيسر الايام فتتناول قوتك مرياً

اي فلاح مصر . اجل قد وافاك سمو اميرك بما حقق آمالك . لانه حفظه الله لم يفته العلم بوقر احمالك فاهتم بان يخفف اثقالك . كيف لا وقد بشرتك الاهرام لسان حالك . برفع بعض العوائد التي سدت في وجهك المسالك مع رفع بعض اثقال الدخولية التي كنت تئن منها كلالاً . وتتأفف من مصادراتها تضجراً وملالاً . فطب نفساً وقر عيناً فقد تنسمت من اللمحات

نفحاتها . ورايت ان الحقيقة لا تلبث الايام ان تصدق على معاني آياتها. واسال الله ان يحفظ لك سمو اميرك مصوناً من نوائب الحدثان. وان يديم رجال دولته في موقف انفاذ مقاصده الحسان

اي فلاح مصر. من انت واياً قصدت اللمحات في ندائها. واياً اتخذت موضوعاً لها في نهاية شروحها وابتدائها. أَوزيراً امتلك من خير الارض الاف الفدادين . ام كبيراً يقلب طرفه في اباعد تزدان بالجنان والبساتين. ام غنياً يتنعم بانفاق الدرهم والدينار. ام تاجراً يتنقل في العمل بين الزراعة والاتجار. ام ذا منصب يحافظ عليه في اي الاحوال رعاية للواصل منه اليه ام ذا ميراث طائل راى الخير بين يديه ولم يتكلف ان يحرك لنيله يديه

اي فلاح مصر . هو انت الذي قصدت اللمحات لا اولئك . اي انت الذي ساورتك الايام واناخ الفقر مطاياه بفنائك . انت الزارع الحارث المؤلف السواد الاعظم في القطر. وانت الفقير المسكين المعاني النصب والقهر انت الذي لا تملك الا الفدان او كسوره او لا تملك غير عشك . او انت المحترف المجاهد في الليل والنهار امل الحصول على بارات قرشك

اي فلاح مصر. هو انت الذي وصفت اللمحات حالك فاصابت. ثم التمست من حكومتك ان تواصل التفاتها اليك فاجابت. فاي رجل لهُ شرف ودين لا يعترف بانك كما وصفناك . واي رجل لهُ بصيرة وبصر لا يراك كما رايناك. بل ما معنى سرور بدا على محياك . واعرب عنه يراعك وشفتاك. بل ما الذي دعا كبارك الى مشاركتك فيه فاحيوا الليالي الزاهرات. وأموا

عاصمة بلادك ليرفعوا الى سمو اميرك ورجال حكومته الشكر على ذلك الالتفات. نقول والحق يقال ان وراء ذلك اربعة مطالب نسوقها بالترتيب المبين. ولئن تكن قذى في اعين المارقين والخادعين المنافقين. وهي

المطلب الاول المستفاد من ذلك هو ان حالة فلاحنا احط مما وصفناها بل ان بواقي ايراده بعد دفع ما عليه هي اقل مما قدرناها. اذ ما بدا من مظاهر السرور علي رفع قيمة لو وزعت على الاهالي بالاقتسام لما لحق الفرد الواحد منهم اكثر من ستين بارة في مدى العام. فالسر فيها انها قد رفعت عن ذاك الفقير البائس لا عن عموم السكان. ولذلك كان لها من حسن التاثير ما بدا امره للعيان. وسرُّ السر فيها ان حالة ذاك الفلاح منطبقة علي ما اشارت اللمحات اليه. لان المتثاقل تحت وقر الاحمال يشعر باقل تخفيف يطرأ عليه والخفيف الحمل لا يهمه رفع الطفيف عن صهوات منكبيه. وحسبنا دليلاً على ذلك مسرة هذا الفقير مما تلقاه. ثم نظر الحكومة في ذلك اليه لا الى سواه. ثم اشتراك كباره معه في مسرته في حين لم يشتركوا معه في ما اتاه

واذا كان ذلك ولا ينكره الا كل خادع مارق. فمن تراه ينكر على اللمحات انهالم تصب كبد الحقائق

المطلب الثاني المستفاد من ذلك هو ان ابن مصر من اعرف الناس بالجميل. واقبلهم الى الارتياح للاقرار به ومقابلة القليل بالجزيل. بل هو من افضل الناس تعلقاً بسمو اميره ابي العباس. واخلصهم له في السراء والضراء والاقامة على طاعته دون التباس. وقد وفق به فكان له بمثابة اب يحنو

ويتعطف. ويعدل و يرحم ويقسو ويتلطف. فكان هو المحسن ولكن الى من يعرف قدر الاحسان. وكانت رعيته هي المخلصة له في السر والاعلان. واذا كان هذا وقد ذكرته اللمحات وسطورها ناطقة. فمن تراه ينكر عليها انها بما ذكرت لم تكن صادقة

المطلب الثالث المستفاد من ذلك هو تحقيق ثقة الاهلين بسمو عزيزهم الخديوي توفيق. فهو الذي انتشلهم من وهدة البداوة الى ساحة الحضارة ومهد لهم سبل التوفيق. وهو الذي وسع في البلاد نطاق العلم. ونشر بالمحاكم راية العدل ونسخ آية الظلم. هو الذي شادت اللمحات بحمده فازدانت الطروس بثنائه العاطر. وهي التي اعلن بها الراي العام عن وكول امره الى عزمه الشديد وفضله الوافر. بل هي التي نطقت عن خاطر رعيته بصادق ميلها اليه. والتشرف بملازمة طاعته والتعويل في اصلاح امرها عليه. واذا كان ذلك وسطور اللمحات قريبة عهد الوضع والطبع. فمن تراه ينكر عليها انها لم تسلك الجادة ولم تنتهج احكام الطبع

المطلب الرابع المستفاد من ذلك هو ان الراي العام في مصر موجود رغمًا عن كل من كابر وهول ولازم الانكار والجحود. فمن يقوى يا ابن مصر على انكار وجود رايك العام في البلاد. الا اعمى البصيرة والبصر واليف الاستبداد وحليف العناد. فمن هم اولئك الوفود الذين اموا ساحة عاصمتك الزهية. وتشرفوا بمقابلة سمو اميرهم ورجال حكومته السنية. أهم اجانب عن بلادك وغرباء عن مصرك. ام زمر واخلاط جمعهم الاتفاق

وبوادر الشتات في قطرك . كلاً ثم كلاً بل هم كبارك المشار كوك في الوطنية الزهراء . والشاعرون بما تشعر به من شدة ورخاء . حملهم عرفانك وعرفانهم فضل اميرك عليك وعليهم . على ان يقوموا بالاصالة عنهم والنيابة عنك بالشكر لما وصل اليك واليهم . فاي ذي وطنية وشرف منهم ينكر على الاهرام انها لم نصب في حقيقة حالك السداد . واي ذي دين وناموس منهم ينكر عليها انها لم تنفرد في اعلان وجود الراي العام في البلاد . واي ذي نظر وفكر ينكر عليها آيات مدحها لفضل اميرك . وما اولاك من المنن في سبيل تعزيز شانك وحسن تدبيرك . فعبثاً يحاول المدلس حجب انوار الغزالة بثوب الرثاء الشفاف وباطلاً يجهد الجاحد الحق في ان يستر بستر الخيلاء والدعوى نور الحق والانصاف

قل اذن ان تلك المطالب الاربعة التي انتجتها حركة الخواطر في هذه الايام انما هي دليل على صدق ما اعانه ابن مصر بلسان لمحات الاهرام . فكرر يا ايها الراي المصري العام بلسان اللمحات ما طالما كررت . وقرر من مواجب الثناء على سمو اميرك ورجال حكومته ما طالما قررت . واسال الله ان يطيل بقاءه ويؤيد كماله . ويصون آله ويحفظ انجاله . وان يديمه عليك ليواصلك من فضله بوافر البركات . وينعشك من زاخر كرمه بشميم نفحات اللمحات . آمين

﴿الجامعة العثمانية﴾

(في ١٤ دسمبر سنة ١٨٨٩)

جوزيتِ يا صروف الزمن خيراً عن الشرق ولئن بلغ سيلك فيهِ الربى وفاض منه الوطاب لانكِ امطتِ لثام الجهل والغرور عن البصر والبصيرة فشاهد الصور وادرك مادتها. اعدت له ذكرى ماضيه ايام كان يجر ذيل العُجب والتيه ويتعثر بالبسط السندسية ويرفل بمطارف الاجلال ويزدان بحلى الفضل ويعتضد بجامعة الكلمة ويشنف السمع بنغمات الاتفاق . ثم نقلت به الى ايام اخذ يجر فيها ذيل الفقر ويتعثر بشوك القتاد ويرفل بعباءة التحقير ويزدان بحلى الجهل ويعتضد بتفريق الكلمة ويشنف السمع بنغمات الاختلاف فتبين بالمقابلة ما هنالك وبضدها تتبين الاشياء

ايها الشرق قد عبثت بك الغِيَر والعِبَر حتى لم تبقِ ولم تذر واخنى عليك دهرك واناخ بكلكلهِ وهو لهُ من طبعه وعادته عذر لانه لا يدوم مسالمًا كما لا يدوم محارباً وسبحان من يصرف الافعال في خلقه كيف يشاء فوهنت عزائمك تحت وقر اثقاله واستسلمت الى الصبر مكرهاً حتى مللته او ملك ثم قلبت له ظهر المجن واستبشرت بصادق القول „ دوام حال محال"

ذلك هو القول الصادع بالحق والدافع الى التنصل من تهيب الصروف والباعث على تلقي وقعات السيوف بدرق الحكمة والعزيمة ودفع طارئات الكوارث بساعد الهمة والثبات فالمرء لا يكون رشيداً الا اذا حنكته

التجارب والفارس لا يستقيم على صهوات الصافنات الجياد الا اذا استقام لهُ موقع الطعن في ساحة الجلاد

ايها الشرقي الذى روعتك طارئات الايام وطارقات الليالي قد شاهدت والعهد غير بعيدٍ ان ذاك الزمن الذي نافرك وناصبك قد انت سابحاته على غاية شوطها ثم رجع بها خبباً وهو يناديك ليسالمك ويصافيك وقد رفع لواء النصر في ساعدهِ مرسوماً عليه شكل (الهلال) فانست وقلت هذه بشارة الخير ومبدأُ الهدى ثم تهلل وجهك بشراً وانت تدعو بفضل المولى الحميد

تلك هي دولتك العثمانية الباذخة الشان . وذلك هو جلالة مولاك ومولاها السلطان عبد الحميد خان . فقد عاهدها الله به فاعزَّك واعزَّها وبشر المشرق بارجاع جليل شانه اليه فاقتبل ما وصل اليك بجميل الشكر

ولا يعزب عنك ان لكل اجتماع جامعة يقوم بها ويستند في ثباته على رعايتها وتلك قاعدة شاملة جامعة تبتدئُ من عائلات المنازل مع قلة عديدها الى ضوابط الممالك مع سعة حدودها وهذه الجامعة هي الحافظة لذاك الاجتماع والداعية الى حرمتهِ وحفظ مقامهِ وبها قامت الممالك على اختلافها وبسببها تهيأَ انتظام ورسمت الضوابط والروابط بين الحكومات

واذا رجعنا الى تاريخ الماضي وجدنا ان هذه الجامعة كانت تختلف بحسب اختلاف احوال القرون وابنائها بان كانت القربى او الجوار او البطن او الفخذ فالعشيرة فالقبيلة ثم انتقلت مع الايام الى الديانة فاللسان فالجنسية فالوطن وهذا هو الشان المرعي الان في غالبية الدول العظمى فان الجامعة فيها

انما هي الوطنية فاوستريا مثلاً تشتمل على عناصر عديدة بين هنغارية وسلافية والمانية وغيرها ولكل لغته فضلاً عن اختلاف المذاهب ولكن الجامعة الوطنية فيها هي النمسوية وقس على ذلك المانيا والروسية وانكلترا وغيرها. وكل منها تجري احكامها على وتيرة واحدة وتخضع لقانون واحد ولو لم تراع هذه الجامعة في كل من الدول المذكورة لتفرق شملها وثل عرشها ونسخ ظلها وذلك هو مبدأ نجاح الغرب واستفحال كلمته ونفوذ امره فانه يجمع ما تفرق في ممالكه من العناصر والمذاهب الى جامعة الوطنية

وعلى هذا المبدا القويم وبهاته الجامعة ايضاً قوام دولتنا العثمانية ايدها الله فان في ممالكها المحروسة عناصر عديدة بين تركية وعربية وارمنية ويونانية وغيرها وكذلك مذاهب مختلفة ولكنها تجمعها كلها جامعة واحدة وطنية هي العثمانية وهي دون استثناء تخضع لجلالة سلطانها وتصدع بامره وتنصاع الى احكامه وهذه الجامعة كانت وتكون الحصن الحصين الرعية دون اطماع الدول وما وراء العبث بها الا الخسران والضياع

واذا تبين هذا وهو الحق الصراح كان ابن مصر وابن الحجاز والعراق والشام وارمينيا والاناضول وطرابلس الغرب وكريد والبلغار اخوة لام هي دولتهم العلية واب هو جلالة السلطان بل كان العربي والتركي واليوناني والارمني والشركسي واحداً في الوطنية ولقبه عثماني بل كان المسلم والاسرائيلي والمسيحي والدرزي وغيرهم واحداً في الوطنية ولقبه عثماني

ذلك هو المبدأ الشريف الذي يجب على كل عثماني ان يراعي حرمته

وتلك هي القاعدة الراسخة التى تقضي على كل عثماني بحفظها والائتمار باحكامها فان الشرق لم يتنزل عن منزلته الرفيعة في سابق الايام الا لما نسي هذه القاعدة ونسخ آية الوئام والوفاق وفرق في الوطنية بين عنصر وآخر وجنسية واخرى . ثم لم يعد الى اصلاح الحال الا لما ادرك الخطأ الفاضح وفرق التفريق وجمع الشتات بجامعة الوطنية

وبناءً على ما اوردناه فاي عثماني سواء كان مصريًا او سوريًا او اناضوليًا او غير ذلك من الممالك المحروسة يجرأُ على التفريق بين صنوف الرعية الخاضعة لجلالة مولانا السلطان او يجاهر بالفصل والتمييز الوطني بين هذه البقعة او تلك الجهة مثلاً وكلتاهما عثمانيتان . بل اي سوقة او امير او وزير او مشير من تبعة الدولة العلية كيف كان مسقط راسه ومنبت غرسه ووجهة دينه يهجم عن ثقة وجهل على انكار هذه الحقيقة او العبث باحكامها — اجل لا يقدم على ذلك الا من خان دينه خيانة تربو مساوئُ اخراه فيها على مساوئِ اولاه وباع وطنه بيع السماح في سوق الذلة والهوان وتجرد عن كل خلق سليم وطبع مستقيم وكان من ذلك الجسم العثماني بمنزلة العضو الفاسد لا علاج له الا القطع

ايها العثماني قد وضح لك ان حفظ قوامك موكول الى حفظك حقوق تابعيتك وما وراء الاخلال بها عن طيش وحمق الا ايغار الصدور وتوليد الفتنة وبالتالي التفريق والانقسام وبئس المصير وانى لك ان ترى غير ذلك بل اي قانون يجيز لك ايها المصري او السوري او الاناضولي ان تنزل اخاك

منك في التابعية منزلة الاجنبي عنك كالايطالي والـمربي وغيرهما

بل اي مبدا سياسي او اداري اصلي او فرعي وضعي او حملي يجيز لك ذلك أليس سلطانك سلطانه. اليس لواؤك لواؤه. اليس قانونك قانونه. اليس شعارك شعاره. اليس جندك جنده . اليست دولتك دولته . اليست معاملاتك معاملته . اليست تابعيتك تابعيته

قل لنا بعيشك اتخطب انت في جامعك وتدعو في كنيستك بغير ما يخطب هو في جامعه ويدعو في كنيسته . أتشاهد على دنانيرك ودراهمك غير الطغراء السلطانية التي تشاهدها على ديناره ودرهمه . أيخفق فوق سفنك في البحر وحصونك في البر لواء غير لوائه

بل قل لنا من الذي اباح لكبارك القاب الشرف أليس الذي اباح لكبار اخيك. وباسم من وصلوا الى الرتب والمقامات السامية . اليس باسم الذي وصل اليه كباره. وبأي النياشين تزدان صدورهم ومن احسن عليهم بذلك اليس بمثل ما تزدان به صدور كبار ذاك وان المحسن اليهم واحد هو جلالة السلطان

بل قل لنا باي قانون تأتمر اذا ذهبت الى صقع اخيك ومن يكون حاكمك والى اين مصير امرك ومن يدافع عنك . ألك حاكم غير حاكمه وقانون غير قانونه وهل له اذا نزل ارضك غير حاكمك وقانونك لانكما كليكما في التابعية سواء وهي الجامعة العثمانية

بل كيف لا تفتخر معه بهذه التابعية الجليلة وانت عثماني في حين

ترى الدول الاوربية تتسابق الى مصافاة السلطنة ومحالفتها كما اوضحنا لك في لمحة سابقة وكيف لا يكون منك ذلك وانت ترى اخوانك في المذهب دون التابعية يشيدون بحمد جلالة مولانا الخليفة المعظم واليك بياناً واحداً بشان ما لقيته السفينة العثمانية التي مخرت في بحر الهند اثناء ذهابها الى اليابان نثبته لك منقولاً عن جريدة الحقائق الغراء وهو بنصه الشائق

" ورد تلغراف من رئيس المدرعة العثمانية المسماة ارطغرل اوضح به ما لقيه من حسن القبول والاحتفال بمقابلته من الطوائف الاسلامية وهروعهم الى زيارة تلك السفينة وانه من عهد وصولها الى مدينة سنغافوره الى الان لم تكد تخلو من وجود الزوار طرفة عين ولقد زاره من مدينتي بومباسي وكولمبو نحو الثلاثين الف زائر ما عدا من تسارع الى زيارته من كبار وعظام جهات ملقه وسوماطره والجاوه حتى قال انه وعموم من بمعيته من ضباط السفينة لا يمر عليهم يوم الا وهم مدعوون فيه لضيافة حافلة وانه عاجز عن بيان ما شمل عمومهم من الفرح والسرور وابداء شعائر الوداد والمحبة القلبية وتوالي الدعوات في المساجد ببقاء مولانا الخليفة الاعظم امير المومنين"

أليس هذا كافياً لو ثامك ووفاقك . وأليس هو برهاناً ناصعاً على ما اوزدناه المرة بعد الاخرى من سمو نفوذ الجناب السلطاني على جميع العثمانيين اولاً ثم على جميع المسلمين ثانياً بصفة كونه امير المؤمنين

وأليس ذلك برهاناً على قوة الدولة العلية وشوكتها وضربة قاضية على اولئك المنافقين الخائنين المارقين الذين ينكرون حقوقها وأليست الدول كلهم

تعترف لها بذلك حتى ان انكلترا نفسها من عهد رجالها بيل وبالمرستون حتى اللورد سالسبري لا ترتاح الا الى السياسة التي يكون من ورائها استمالة الدولة العلية اليها مما سناتي على بيانه في لمحة ثانية

ايها العثماني قد حصحص لك الحق فاصدع به وثابر على هذا الوفاق والوئام واقضِ القضاء الصارم على من عق وخان . وانت ايها المصري العثماني الذي كنت في مقدمة من اخلص وحافظ على هذه التابعية وعلم انهُ خاضع ديناً وسياسة لجلالة سلطانه احتفظ على هذا المبدا الشريف وتمثل بسمو عزيزك واميرك الوكيل الشرعي عن جلالة سلطانك والحاكم على بلاد هي من جسم السلطنة بمنزلة القلب بل هو العضد الاكبر للدولة والوطن ومقر ثقة العظمة السلطانية ومحط التفاتها وميلها . واسال الله ان يصونهما ويعز شان الامة والوطن ويزيل داعية الشقاق وتفريق الكلمة ويؤيد الاتحاد والالفة فبهما العزة والمنعة وحسن الختام

﴿ الاعمال بالعمال ﴾

(في ١٨ يناير سنة ١٨٩٠)

سئل بزرجمهر الفيلسوف عن الاسباب التي اودت بدولة بني ساسان بعد ان كان لها من بسطة الملك وفخامة السلطان واستفحال الكلمة ونفوذ الشوكة ما لم تصل اليهِ دولة فاجاب بقولهِ « لان ملوكها قلدوا كبار الاعمال لصغار العمال »

ذلك لعمر الحق جواب قاطع مانع بلغ من البلاغة حدها واصاب سهمهُ من الحقيقة كبدها . وهو ولا مشاحة من اهم المواضيع التي تستلزم من مطالب البحث والشرح ما يفي بالغرض ويستلفت ارباب الكلمة الى تدبره والتنبيه اليه وقد تخيرناهُ موضوعاً لمحثنا هذه ندمج في سلكها من مبناهُ ومغزاهُ ما يحتملهُ المقام ولا تفوت فائدتهُ فنقول

لا يعزب على الافهام ان الوجود نفسه لم يحفظ الا بالنظام على نحو ما شاءت ارادة واجب الوجود جل جلالهُ وتلك العناصر والنواميس لا يكفل حفظها الا بقاء ذاك النظام السامي الشامل دقائقها واحكامها اصلاً وفرعاً وهذا النظام العام كان علة للنظام الخاص من قبيل الميل الغريزي الطبيعي الى المحافظة على البقاء . وعن ذلك تولد نظام الشخص الفرد فالعائلة وما فوقها بسلسلة صاعدة الى الدول والممالك . وهذا النظام لم يقم الا بما تبينه العقل من القواعد والنواميس الضامنة ادراكه والكافلة رعايتها حفظه وهي ولئن اختلفت مبدأ باختلاف العادة او المكان لا تختلف غاية وهي الاحتفاظ عليه لقيام العمل به

واذا وضح هذا كان ذلك النظام الكافل حفظ تلك العائلة المنضوية الى رعاية ربها في منزله هو نفس النظام الكافل حفظ تلك الحكومة الباذخة الشان برعاية اربابها . وكما ان ارباب العائلات مسئولون لدى هذا النظام عما يفعلون بالنظر الى عائلاتهم كذلك ارباب السلطة مسئولون عنه لديه بالنظر الى شعوبهم ورعاياهم وهذه المسئولية تعظم ان تقل نسبياً فرب



العائلة تطالبهُ اسرتهُ فهو مسئول لها ولذمته. واما الحاكم فتطالبهُ رعيته كلها فهو مسئول لها ولذمته ولوطنهِ ولعائلته ايضاً فواجبهُ من هذا القبيل اعم من مواجب رب العائلة ولقد كان لهُ تلقاء اهمية ما عليه ما ليس للثاني من احكام الحرية فرب المنزل يضيق عليه في سبيل حفظه لنظامه ما ينفسح معهُ مجال الحاكم في سبيل حفظه لنظام حكومته لان النقطة لدى الفريقين واحدة وهي التعاون

نتج مما ذكر ان نظام كل حكومة او مملكة يقوم بعمالها وهولاء لايصلحون لحفظ ذاك النظام الا برعاية امور ثلثة وهي حسن انتقاد وانتقاء وتعيين فبالاول وقوف على حقائقهم وبالثاني نزوع الى تخيرهم وبالثالث احكام في استخدامهم والى هذا المعنى اشار الحكيم بزرجمهر في جوابه فكنى بـ=ـبار الاعمال عن الخطيرة منها وبصغار العمال عمن يصغرون ادارة لا عمن يصغرون سناً فكم فتى بلغ حلم الشيخ وشيخ في حلم الفتى

وما كمال الفتى بالشيب في شعرٍ لكن كمال الفتى بالشيب في الخلقِ

وتحرير عبارته انهم قلدوا الوظائف لمن لا يصلح لها فوضعوا الشيء في غير موضعه وهو مبدا الخلل

وانهُ ليسهل علينا ادارك هذه الحقيقة اذا التفتنا الى مراجعة حوادث الامم السالفة وتواريخ الممالك الماضية وحسبنا من ذلك وقوفنا على حالة الشرق ايام كان يجر ذيل العجب والتيه ومقابلته بحالته ايام اخنى عليهِ الزمن فتثاقل متعثراً بذيل الفقر والخمول اما الاولى فكانت لهُ يوم رعاهُ

رعاة مقسطون مدركون انتقدوا الرجال وانتقوهم وقلدوهم من الاعمال ما ياهل لهم . واما الثانية فكانت يوم ساسهُ ساسة اضلهم الجهل واعماهم الغرض وافرطوا وفرطوا فاودوا بهم وبالرعية وساءت الحالة مصيراً . ومعلوم ان العالم درجات وان التفاوت من احكام الطبيعة وبه تقوم مصلحة العباد ولله در من قال

لولا التفاوت في البرية لم يكن امر بمصلحة العباد يقومُ

وكم من امة ذليلة اعزها شخص واحد وكم من مملكة عظيمة اذلها شخص واحد فالدول باعمالها وهذه بعمالها . وقد تنبه رجال الممالك في هذا القرن الى المبدا الجليل واعملوا الفكرة في تمهيد المسالك الموصلة الى المحجة البيضاء وبالاستقراء ادركوا الوسائل الكافلة نيل هذه الغاية وهي محصورة في مطلب واحد هو تعميم العلم

فالعلم انما هو المرقاة التي ترقى بها الحكومة والرعية الى قمة العظمة والمجد والكمال لان تعميم العلم يتيح تكثير الرجال الصالحين للعمل فتتزن بهم مصالح الحكومة فهي مع تشعبها ليست الا بمثابة سلسلة محكمة الحلقات فلا بد من رعاية كل حلقة منها لان انتثار الواحدة يوذن بانتثار الاخرى فيفسد النظام ويتسلط الخلل . واذا دققنا في احوال كل دولة من دول هذا العصر وجدنا ان الاسمى نظاماً بينها هي الاكثر رجالاً والعكس بالعكس واليك البرهان

قلنا ان مصالح الحكومة متعددة وكل فرع منها منفصل عن غيره

لفظاً متصل معنى فسلامة نظام مجموعها موقوفة على سلامة نظام افرادها ومعلوم ان الانسان كيف كانت درجة ادراكه ا كفى لاتقان عمل واحد منه لاتقان عملين اثنين لان في الاول توجيه القوى مجموعة الى نقطة واحدة وفي الثاني توجيهها متفرقة الى نقطتين والجمع حليف القوة كما ان التفريق حليف الضعف . فاذا قل في الحكومة عدد العمال الصالحين للعمل اقتضى ان يقلد بعض مصالحها لمن لا ياهل لها وذلك يستلزم من كبار العمال النزوع الى واحد من اثنين اما الاغضاء واما الالتفات فان كان الاول فلا بد من وقوع الخلل الذي لا تنحصر دائرته في مشتملات ذاك الفرع من المصلحة فقط بل تحيط بغيره لما هنالك من ملابسة الصلات وان كان الثاني اقتضى بالطبع توزيع القوى على جهات متعددة ونقط متباعدة فتفوت العناية حقوقها مما يستلزمه المهم من تلك المصلحة لاضاعة الفرصة في مناظرة ماهو اقل اهمية وقد قلنا ان الضعف حليف التفريق — نتج اذاً ان كل حكومة كثر عمالها الصالحون المدربون استقام نظامها وقل خللها او امتنع وهذا هو محط الرحال

وان لنا من وراء ذلك ايضاً مطالباً خطيراً يؤيد عزة كل حكومة ومنعة كل دولة وهو احتفاظ الرعية على وطيد ثقتها باهلية حكامها ووكول امرها اليهم وارتياحها الى اجراءاتهم حتى لا يعود يهمها فصل هذا الموظف سواء كان وزيراً او وكيلاً او مديراً او قاضياً ولا يروعها استعفاؤه او مبادلته غيره في وظيفته او تقاعده او موته لتأكدها ان رجال الحكومة الصالحين

للعمل كثيرون فلا يخشى ان تتعطل مصالح دولتهم او تسقط بعلة فصل وزير او استعفائه (الا في ما ندر كما لو كان الموظف نادراً في صفاته بين الرجال والنادر لا يبنى عليه حكم) لان تقليد الوظائف لا كفائها يتيح لهؤلاء تدبير الشؤون على وتيرة واحدة تساق اعمالها بالنظام الاستقرائي ولذلك لم يرع انكلترا موت ديزرائيلي كما لم يهلها تنحي غلادستون وقس على ذلك غيرها من الدول التي كثر رجالها العظام وكان لها الحظ الاوفر من تعميم المعارف

واذا تبين هذا وجب على كل حكومة متيقظة ان تصرف منتهى العناية وغاية الهمة الى تمهيد السبل المبيحة تكثير الرجال الصالحين للعمل لكي تحافظ على نظامها وتدرأ عنها غائلة النقص والذل وتكون امينة من مستقبلها كامنها من حاضرها لعدم وجودها تحت رحمة واحد فرد فان الخلود لله جل جلاله. بل وجب على كل رئيس كيف كان مقامه ومركزه ان يدرب من يراسهم على العمل ولا يستنكف من تعليمهم وتثقيفهم وافادتهم وتشجيعهم وان ينبذ ذاك المبدا الذي اتخذه بعضهم حاجزاً دون اعداد الرجال وهو الخوف من المزاحمة فان الخدمة العامة مفضلة في كل حال على الخاصة وليس للانسان الا ما سعى. وما افضل ان يقال ان زيداً لم يخدم وطنه وهو في الوظيفة او في حياته فقط بل خدمه وهو بمعزل عنها او بعد موته ايضاً وذلك بمن علمهم من ابناء الوطن واعدهم رجالاً عظاماً ومدبرين حاذقين وساسة محنكين فالوطن يحفظ له ولاله الذكر الجميل والاثر الجليل

واذ قد تبين لنا ان سلامة النظام في الحكومات والدول موقوفة على اكفائها من رجال العلم والعمل وجب ان نرى في الشان الذي ينبغي ان يراعى لهم لدى وجودهم . فنقول ان المواجب في هذه المسالة من وجهيها انما هي واحدة فكما انهُ يجب النظر في تكثير العمال الصالحين حفظاً للنظام كذلك يجب النظر في تعيين كل عامل للوظيفة التي يصلح لها حفظاً لنظام تلك الوظيفة والا فسدت النتيجة لفساد مقدمتها واستوى العالم والجاهل والقلة والكثرة ولقد ذكرنا آنفاً انهُ يجب على المقلد الوظائف ان يكون حسن الانتقاد والانتقاء والتعيين اما الاول فيقضي على المنتقد ان يكون عاقلاً لان نقد الرجال من اصعب الدروس وان يكون مستقيماً لئلا يتغلب الغرض والصنيعة على معرفته . واما الثاني فيقضي عليه بان يحسن التخير لان مجرد العلم دون العمل لا يغني فضلاً عما يستلزم ذلك من رعاية الاخلاق والصفات . واما الثالث فيقضي عليه برعاية النظير اي بتقليد الوظيفة لمن لهُ سبيل الى بابها اذ لا يسوغ ان يقلد الطبيب وظيفة مهندس ولا هذا وظيفة كيماوي الخ ولكن اذا سلمت الوظائف لاربابها حسنت الحالة وقاموا بواجباتها قياماً مشكوراً لانهم يعملون بما يعلمون فلا تفوتهم اوجه المنفعة ولا يصعب عليهم درء المضرة وذلك ولا مراء هو الشان المهم الواجب التنبيه اليه والتعويل عليه بل هو قوام كل حكومة وميزان كل دولة

ومن هذا المطلب يساق توجيه التنبيه الى كل حكومة قل عديد عمالها الصالحين الى الاحتفاظ عليهم بما يصل اليه وسعها والى حسن انتقائهم

وتقليدهم الوظائف وتدريبهم على العمل وتعويدهم على النشاط واعدادهم لرئاسة المصالح المهمة لدى الكفاءة دون النظر في اعمارهم اي يجب ان نجعلهم كباراً في الاستعداد والادارة ولو انهم صغار في السن ليتمكنوا من خدمة الوطن وهم في جدة الشباب ونشاطه قبل ان يدركهم عجز القوى العقلية والبدنية فتفوت المزية المطلوبة منهم في خدمة البلاد

على ان النظام المطلوب في بياننا هذا لا تدرك غايته الا اذا روعي فيه ما على ارباب الوظائف ولا سيما كبارهم من المواجب المهمة وهو ما نلم به في ختام لحننا هذه لتكون محيطة بالموضوع من جميع اطرافه

فمن ذلك اولاً وجوب ثقة رئيس المصلحة بمن يرأسهم ليتمكن من التفرغ الى المهم من وظيفته فيوفيها حقها والا التبست عليه اشغالها واستوى الاهم منها بالمهم فانقص من واجب الاثنين · ودليل ذلك ان الناظر مثلاً لا يمكنه ان يكون ناظراً ووكيلاً ورئيس قلم ومديراً ورئيس ضبط وناظر قسم فاذا لم يثق بعمال نظارته بل وجه عنايته الى هذه الفروع توجيهاً عملياً قصر بالطبع عن القيام بمهام النظارة الاولى واقعد العمال عن العمل جبناً واستياءً وكان بما اتاه مشتغلاً بما يمكن لغيره ان يشتغله وتاركاً ما لا يباح لغيره ان يشتغله فالثقة اذاً واجبة على شريطة ان نقرن بالمناظرة العامة

ثانياً يجب ان يفتدي المصلحة العامة بكل مصلحة خاصة وهذا الواجب يقضي عليه برعاية مطالب عديدة منها عدم اتخاذه المنصب ذريعة لنيل اغراضه الخاصة . ومنها عدم تحقير من يراسهم لئلا يسأموا · ومنها عدم استنكافه من

مشورة من يتبين كفاءته منهم في حين لا يحسن ان يكون آلة في ايديهم .
ومنها اعطاء كل ذي حق حقه وتقديم المستحق وتثقيف المستعد ونبذ المتاخر وما شاكل ذلك .

ثالثاً يجب عليه ان يشرف المنصب بشريف اعماله فالخير في من تصدر في المجالس لا في من صدرته المجالس. وذلك يقضي عليه بان يقرن العزة بالحلم والعظمة بالاتضاع والوقار بالوداعة والعدل بالرحمة والشدة باللين. وفي هذه الحالة ينبغي عليه ان يترفع عن الدنايا كترفعه عن العار رعاية لحرمته وحرمة منصبه . وان يجعل مقامه اسمى من ان تصل اليه وشاية واش او نقل ناقل حتى لا يكون للغرض عنده مجال حذر ان تحركه العوامل النفسانية الى ما لا يؤذن به سمو المنصب وهو الانتقام الذي لا تدانيه كبار الرجال ولا تتنازل الى تصوره ارباب المناصب السامية

رابعاً واخيراً يجب على رب المنصب ان يتخلق بجميع الاخلاق الحميدة الشريفة فهو من الرعية بمثابة مثال للاقتداء ونبراس للاستضاءة فلا يحسن به ان يكون عبوساً فينفر عنه ولا ضحوكاً فيهزأ به ولا كاذباً او مخادعاً او منافقاً لئلا يفقد ثقة العالم به ولا سكيراً او بذيّ اللسان لئلا يحتقر ويهان بل يجب عليه ان يحافظ على كرامته بمحافظته على كرامة غيره وان يكون ثابت الراي لا عنيداً فيه وان يعلم فضل الاخلاص والولاء والود ليشوق الناس الى رعايتها وان يحترم الحسنة ومن اتاها ويقسو ليؤدب لا لينتقم ويحنو ليستميل لا لينفر. فاكتساب ميل الناس وثقتهم من اهم واجبات

الموظف وبالتالي ينبغي ان يكون متحلياً بالاخلاق التي يستلزمها المنصب ويقضي بها ناموس الانسانية

ذلك ما عنَّ لنا ان نعلقهُ في هذا الموضوع العام المهم ونحن على حالة نحمد الله لوصولنا اليها في شرقنا فقد اقتضت حكمة جلالة سيدنا ومولانا الخليفة السلطان الغازي عبد الحميد خان المعظم ان يعز السلطنة السنية بعزة عمالها وتكثيرهم وتقليدهم الوظائف التي يستحقونها ومثابرة التنبيه والوصاية للنظر في مصالح الرعية التي تدعو بتاييد ملكه ودوام نصره

وهكذا اقتضت حكمة سمو امير مصر وعزيزها وتوفيقها فانهُ حفظهُ الله لازم السهر في سبيل الوقوف على احتياجات الرعية وتمهيد العقبات الحائلة دون نجاحها وصرف العناية الى تعميم المعارف بين ابناء البلاد واعز شان المدارس وادام التفاته اليها فاكثر بذلك عدد العمال الصالحين للعمل واحكم في حسن انتقادهم وانتقائهم وتعيينهم وفتح لهم ابواب التقدم وسهل مضمار المباراة فشادت القلوب بحمده ونطقت الالسنة بمدحه واشتركت في الدعاء لهُ بطول البقاء وحفظ الانجال الكرام

﴿ هل عندنا رجال ﴾

(في ٨ فبرايو سنة ١٨٩٠)

اجمع ارباب الحجى على ان الشرقي قد افاض الله عليه من بركات الحجى ما اتاح لهُ الاندماج في سلك المرتبة الاولى بين مراتب بني آدم

واتفق المورخون على الحكم بسمو مقام الشرقيين بما استدلوا عليه من بدائع اثارهم واوابد اخبارهم

وقرر المدققون ان للايام اطواراً وللاحكام اقداراً وللزمن ادواراً تخضع لنواميس الطبيعة بين اقبال وادبار ايماءً الى حركة الوجود

وقضى الحكماء بان العقل كالجسم في قابلية النمو فلا مندوحة عن رعاية الوسائل والوسائط

واجمع العالم على ان العلم حياة العقل فهو غذاوءه وقوامه وملاكه وبه نشأته وعليه معوله

وحكم الطبع بان المصري هو من فريق الشرقيين وان لهُ من الآثار ما يربو على اثار غيره عداً وعظمةً ونظاماً واحكاماً وعلماً وصناعة . وان الايام قد دالت على هذه البلاد فانتابها من رائعات العوادي وعاديات الروائع ما قلب لها ظهر المجن وغمزها بسنان النكد والقهر حتى اذا انتهى طور ادبارها بسم لها ثغر الزمان مبشراً بطور اقبالها وذلك من يوم عاهدتها العناية بعهد المغفور لهُ الرجل العظيم محمد علي باشا ومن تعاقب بعدهُ من اعضاء اسرته الكريمة حفظها الله

فمن ذلك العهد هدمت حصون الاستعباد ودكت صروح الجهل . وشيدت على اثرها قصور المدارس . وخفقت فوقها بنود المعرفة والعلم . وعمرت دور الطباعة وولغت السنة الاقلام في دماء المحابر وجرت سابحاتها في ميادين الطروس . وثقفت العقول بالفنون . وارسلت الطلبة الى البلاد

الاجنبية للوقوف على معارفها واختراعاتها وعجائب اعمالها ·وترجمت الكتب المفيدة بيراعة ارباب البراعة ·وامَّ مصر الرواد والسياح والنزلاء يخالطون ابناء البلاد ويمازجونهم ويعاملونهم · ذلك فضلاً عما كان للقطر من دانيات القطوف في جنان الفضل وزواهر العلم من بستان الازهر بل حرم العلوم الذي كان ويكون وسيبقى الحافظ الاكبر لعلوم الامة العربية وموضوع فخرها وموطن مجدها ·وهكذا مرَّ على البلاد نيف ونصف قرن وهي جانحة الى التقدم ناهجة منهج السداد سائرة الى المحجة البيضاء · تذكر مجد اجدادها وما آلت اليه بعدهم فتحتفز الى القيام لارجاعه وتشاهد عناية الاسرة العلوية بها فتحفظ على جميلها وتداب السعي في اجابتها لرغائبها ·وتري تسابق غيرها الى توسيع نطاق الادبيات والماديات فتانف من السكون الى الخمول ·وتتبين انعطاف سمو اميرها وتوفيقها الى تاييد عزها وتشييد دعائم مجدها فتشيد بحمده وتهب من رقدتها ناشطة من عقال الحطة والخسف

تلك هي حالة مصر وما وليها من ذرائع التقدم مضافة الى ما انشأته يد الحوادث فيها مع طور الاقبال من مدارس التجربة وسطرته من دروس الاختبار ورسمته من مشاهد الاعمال وصور العمال على صحائف السياسة والواح الادارة فضلاً عما انتبذته من مطالعات ساقطة ومطالب ضاغطة ·وقد اقررنا وليس من يعنفنا او ينكر علينا ان قد صحت عقول ابنائها لصحة هوائها ومائها فنالوا بالاسرة الكريمة والفوز بالعلم الاطيبين بعد ان ذاقوا بسوء الحكم وتسلط الجهل الامرين · فهل بعد ذلك يسوغ لنا يا ترى ان نسال „ هل

عندنا رجال»

لقد مرَّ علينا بضعة اعوام اختلط خل حوادثها بخمرها والتبس خيرها بشرها. فنظرنا من بادي السياسة ما نشر عن خافيها وتبينا من خافيها ما شذ عن باديها حتى اذا ما وصل مستطلعوها السير بالسرى وقفوا وقد تفتقت استارها وقوف من اذهله ما لم يخطر له ببال اذ شاهدوا ايد السياسة قد كتبت على صحيفة الاعتذار سطراً ملخصه «هل عندنا رجال»

ولكن من ترى هم الرجال الذين يقصدون في هذا السؤال. افلاحون يخدون الارض ويسمدونها ويمرعونها انتجاعاً للورد الخصيب. ام مزارعون يبذرون الدرهم لاستغلال الدينار ويحكمون الزرع لاستدرار الضرع. ام تجار يردون ويصدرون ويوردون ويصدرون ويبيعون ويشترون. ام مضاربون يسترزقون بالحركة وتقذفهم عوامل الايام بين خوف من العناء وامل بالاكتفاء. ام محترفون يسلطون المادة على مثلها لايجاد الصور فينقدهم مساؤهم ما ينفقه صباحهم. ام موسرون كفاهم غناهم مؤونة النصب فاخلدوا الى الراحة وجانبوا شظف العيش - كلاً ان السياسة بسؤالها لم تقصد الرجال الذين من هذا القبيل اذ ليس لهؤلاء فعل موثر في احكامها ولكنها تقصد رجالاً تقوم بهم الهيئة الحاكمة لمساند اربعة وهي السياسة والادارة والحقوق والجندية

اما السياسة فهي الركن الاول من اركان كل حكومة وبلاد بل هي الدعامة الوحيدة للمساند الثلثة المنوه عنها فكل حكومة لا سياسة لها لا قوام

لها وليس يخفى ان الحوادث قد قضت بان يكون للسياسة في مصرنا شان مهم لا ينكره الا كل من لا يعلم من السياسة غير اسمها

واما الادارة فشانها معلوم وهي محط رحال العمل ومهبع النظام وموئل الاتقان وبها تمهيد عقبات الاشغال والصلة الثابتة بين الحاكم والمحكوم والمنهج الواضح اما الى محجة العمار او الى وهدة الخراب · وان لهذا المسند في مصرنا شاناً يربو عظمة واهمية على مثله في بلاد اخرى لاسباب عديدة لا تحتملها عجالتنا هذه بل لا بد من الافاضة فيها في لمحة ثانية قريبة العهد

واما الحقوق فاسمها يغني عن تبيانها فهي ميزان العدالة بل هي الكافلة تبادل الحقوق وصون الحياة والرزق وقد كان لها في مصرنا شوءون تترى يأنف ذو الشامة من ذكراها ثم انقلب الشيء الى ضده لتناهيه فامسى هذا المسند موضوع اهتمام القريب والبعيد ومرمى سهام النظر من الصديق والعدو

واما الجندية فيكفي وصفها بانها سياج الحكومة والامة ولها فضل الامن الداخلي ودفع الطاريء الخارجي ولم يكن لها في ما مضى الشان الذي امسى لها الان عندنا بعد ان ساورتنا الايام بمصائبها واكتنفتنا الحوادث بنواصبها فباتت وهي نقطة الدائرة لخطوط مستقبل القطر

تلك هي المساند الاربعة التي تحتاج الى رجالها في قطر يبلغ نحو السبعة ملايين نسمة عداً وقد جرى من نيف ونصف قرن في المنهج الواضح علماً ودربة ولابنائه من الذكاء الطبيعي ما يوءهلهم الى ادراك المرام بسرعة

الاكتساب فهل يسوغ لنا بعد ذلك ان نقول " هل عندنا رجال "

نقول ولا نخشى في الحق لومة لائم ان عندنا لهذه المساند اكفاءها من الرجال في حين لا نتطاول الى القول بان عندنا منهم عدداً ومقاماً ما عند انكلترا او فرنسا او غيرها ولكن لدينا اكفاء اقاه لما اهم من المصالح · واننا موردون للمطالع برهاناً ناصعاً على صدق ما اثبتناه وهو يشمل النظر في مسندي الحقوق والجندية فنقول

لا يعزب على المدققين ان الوطنيين كانوا في ما سلف يبيعون دعاويهم او يرفعونها باسم الاوربيين لكي تقام امام المحاكم المختلطة اذ كان لهم من الثقة فيها ما يحاكي عدم ثقتهم بالمحاكم الوطنية السابقة وكانوا يعذرون في ذلك · ولكن لما سمحت ارادة الجناب الخديوي التوفيقي بانشاء المحاكم الجديدة على السنن والقوانين العادلة وبدا للناس من احكامها وحرية ضمائر قضاتها ما حسنت بدايته وشرفت غايته عدل الناس عن منهجهم الاول ووثقوا بالمحاكم الاهلية وثوقاً جاء اصدق برهان على اهلية رجالها ولا سبيل للتحول عن هذا الوثوق الا اذا تبينوا ما يعبث به واهمه الخلل بالاستقلال

اما رجال الجندية فنكتفي بالبرهان على اهليتهم ما كان منهم في مواقع الحدود ولا سيما موقعة طوسكي التي ابلوا فيها ولسنا ننكر فضل قادتهم عليهم بتدريبهم ولكن الفائدة التي وصلت الى الجندي البسيط كانت اسمى ولا مراء عند الضابط فكما ان ذاك احكم القيام بواجبه كذلك امكن

لهذا ويمكنهُ ان يحكم بها اكثر من الاول لسموهِ عليه في الاستعداد فالتفاوت امر طبيعي وحسبنا شاهداً على ذلك ما قالهُ روءساء الجند من الانكليز في هذا الموضوع . واذا كان لمسندي الحقوق والجندية المهمين جداً اكفاؤهما فكيف لا يكون اكفاء للمسندين الاخرين

ويذكر المطالع اننا ابنا في لمحة سابقة عنوانها ﴿ الاعمال بالعمال ﴾ ان القيام بالمصالح يستلزم وجود العمال وهذا يستلزم رعاية ثلثة امور وهي حسن انتقاد وانتقاء وتعيين وقد ثبت لنا الحصول على الاول فاذا اقررنا برعاية الثاني كان لنا عند ذلك ان نقول انهُ لا يسوغ ان نسال « هل عندنا رجال »

بل كيف يسوغ ان نسال ذلك ولا نخشى ان تسالنا العدالة وما الذي ينقصكم من معدات النجاح او من لم يستوف حقهُ من العلم والعمل . الم يقم منكم شبان طووا اردية الشباب باحراز العلوم ثم نشروها في سبيل العمل . اليس فيكم ارباب السياسة الذين اتاحت لهم الايام سهولة المطالعة والمراقبة والمعاشرة والمجالسة . وتلقي الحوادث سيئة وحسنة والتنقل في المناصب عظيمة ووضيعة . اليس فيكم ارباب الادارة الذين اعد لهم الاستحقاق او الحظ مقاماً في الخدمة وتمكناً من المنصب وتقلباً في الوظائف ودرساً في صحف الخبرة والتجربة وتوكوءاً على عصي الحوادث . اليس فيكم المهندسون الذين رسموا مقدمات اقليدس على الواح افكارهم واناقوا عليه بما اربى على متونها من شروح المتاخرين اليس فيكم الاطباء الذين احيوا ذكر بقراط وجالينوس

والشيخ الرئيس وقرنوا العلم بالعمل اليس فيكم الاقتصاديون الذين يحكمون النقد في العمل والمعاملة فلا يلبث ان يمسي درهمهم ديناراً – بلى فيكم كل هؤلاء وكيف لا يكون ذلك وطور اقبالكم في عهد الاسرة المحمدية العلوية اتاح لكم الوصول والحصول على هذه المطالب فلذلك هل يسوغ ان نسال „ هل عندنا رجال "

نعم يسوغ هذا السوال ولو ان هنالك رجالاً في ما اذا انتفى حسن الانتقاء او قصر العمال في العمل ويمكن حصر ذلك في امر واحد لا غير وهو تفضيل المصلحة الخاصة على العامة فان ذلك من ادعى الاسباب الى هدم كل نظام ومنع كل اصلاح ولا سيما في البلاد التي قام للسياسة فيها شؤون واغراض واشرابت اليها اعناق الاطماع والغايات وهيهات ان يقوم للمقصر عذر او تقبل منه حجة في حين انتدب لخدمة وطنه واستلم زمام الامر والنهي وعلم انه انتظر ان يسمع من وراء حجاب الحق صوت الذمة والشرف يسال ذاك العامل ما عذرك في صرف همتك الى تحقير من ترأس وتفريق كلمتهم والقاء الشقاق بينهم وارتكابك الدنايا واهتمامك في الانتقام من زيد واعداد الشر لعمرو ونبذك اوامر رئيسك واستعمالك الجفوة والقسوة وجهلك مواجبك ولزومك الخداع والرئاء والمخاتلة وعدم الوفاء والعفاف وتوجيه جميع قواك في سواد ليلك وبياض نهارك الى شر تدنيه وخير تقصيه في حين يجب ان يقودك عقلك الى انك باستلامك وظيفتك قضت عليك ذمتك وشرفك ودينك بان تكون اعمالك كلها لوطنك ولاميرك ولرئيسك . وانك في

مقامك بمثابة مرآة لمن هم يصدعون بامرك فيقتدون بك ويعلمون ان القيام بواجبهم فروض مقدسة وينقادون الى اشارتك عن ميل ورغبة لا عن ازورار ورهبة وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيهُ سوف يرى

فبماذا تجيب عزّة النفس وانت تسعى الى الذلة والحطة وباي حال تقابل الشهامة والانفة وانت تسعى الى رعاية الصغائر . وكيف تسال الاخلاص من غيرك وانت غير مخلص لغيرك بل غير مخلص لنفسك . بل كيف تشكو من وطأة المراقب وانت تفتح بمفتاح تقصيرك اقفال منزلك . وكيف تشكو معاملة رئيسك وانت اكرهتهُ عليها بمعاملتك

ولكن انى للعدالة ان تشكوك او لصوت الحق ان يعنفك وقد اعززت مقامك باعزاز نفسك وشرفت منصبك بشريف اعمالك واوجبت على الغير احترامك برعاية مواجبك فنفرت من الدنايا وتمسكت بالعظائم ولزمت حرية الضمير واستقلال الفكر وقوام الإرادة وصدق الاخلاص فابيت ان تكون آلة صماء تديرها يد الاهواء كيف تشاء تفضيلاً للصالح الخاص على العام

بل كيف لا يكون لك ذلك وانت تعلم ان شموس الحرية في هذا العصر قد نسخت ظلام الاستبداد والرق وان مشكاة العلم قد انارت الابصار والبصائر فالاعين بك شاخصة والاذهان مراقبة والاقلام مسطرة والتاريخ حافظ

بل كيف لا يكون منك ذلك وانت ابن بلاد ينعشك هواءها ويرويك

ماوءها وتدر عليك ارضها وسماوءها وقد ربيت في احضانها وصدرتك في ديوانها وعلمت ان شانك يقوم بشانها

بل كيف لا يكون منك ذلك وانت الذي لزمت دار العلوم من يوم اميطت عنك التمائم ونقدت جديد الشباب درساً لتحافظ على درهم المشيب ادارة وتبرهن لاقرانك انك ذاك. ولوطنك انك غير عاق. وللقريب انك من انسال اولئك وان في البلاد رجالاً من امثالك ياهلون لاجل المناصب فلا يكون للفكر مجال في ان يسال "هل عندنا رجال"

بل كيف لا يكون ذلك منك وانت تستوهب نعم تلك الاسرة المحمدية العلوية وتعيش في ظلها وتعترف من نيل جدواها وترى التوفيق بالتفات سمو توفيقك العزيز الذي وقف نفسهُ لخير وطنك واسعاده وهجر الوسن في سبيل انجاح مقاصده وتحقيق امانيهِ. فاعرف واعترف بجود يديهِ . وكل امرك في مهام الامور اليهِ. اعز الله به البلاد . وبلغها بطول بقائه المراد . حتى لا تبرح تتجاذب بوجوده اطراف الفوائد . ولا تنفك تهصر لمكارمهِ اعطاف المحامد

﴿ من استقلت ارادتهُ استقامت ادارتهُ ﴾

(في ١٥ مارس سنة ١٨٩٠)

نتصور فنريد فنعمل فنجازى فالجزاء مترتبٌ على العمل وهذا موقوف على الارادة. وقد ذكرنا في لمحة سابقة ان سلامة الوجود العام تكفلها

سلامة النظام العام . وان سلامة الموجود من ادنى فاعلي يقوم بحفظ النظام المترتب على حسن العمل وذلك ما لا يكفلهُ الا ادارة مستقيمة تصدر عن ارادة مستقلة فمن استقلت ارادتهُ استقامت ادارتهُ

نتج اذن ان سلامة كل فرد بل كل حكومة موقوفة على سلامة نظامها وذلك مترتب على حسن الادارة . فالادارة اذن ميزان كل حكومة وقوام كل مملكة . ورجالها هم الكافلون صون بلادهم والقائمون بشؤُونها والذابون عن حوضها والدارئون طوارئها والذاهبون بها من غمرات الخلل والضغط الى سواحل النظام والسعة بل هم سياجها الضامن استقلالها والصائن حقوقها . ولذلك وجب ان يكونوا اكفاء لها وبالتالي اكفاء للقيام باعباء تلك المسئولية او التبعة التي تلحقهم اصلاً وفرعاً من وراء قبضهم على ازمة العمل واستئثارهم بتصريف الفعل فيما انتدبوا اليه ومطالبة كل منهم بما تستلزمهُ قوانين ادارته لان التصدر لتحمل اعباء تلك التبعة هو الذي اباح لذاك العامل ان يتصدر في ادارته ويمتاز ادبياً ومادياً عمن هم دونهُ

ذلك ولا مراء هو الناموس الذي قضى بالرضى المتبادل بين ارباب المراتب على اختلاف النوع والكيفية . والا فكيف يحكم العدل على ذاك العامل بالسكوت وقد داب على العمل مكافاً بحمل الاثقال ومعرضاً حر وجهه لحر الشمس وضاغطاً على قواه البدنية ضغطاً اقل نتائجه شق النفس وعرق القربة ولهُ جزاء ذلك من نقد معدودٍ ما لا يتيح له الا الحصول على كسرةٍ من خبزٍ اختمرَ بحرارة التعب وعجنَ بعرق الجبين ولكنه رزقٌ حلالٌ .

وكفى به انه يغني عن ذل السؤال بينا يرى ناظره او رئيسه مكتفياً بالايماء والاشارة نهياً وامراً غير مكلف بشاق العمل وله جزاء ذلك من نقد معدودٍ ما يتيح له بسطة العيش والتانق بالماكل والمشرب والتدثر بخير الملبس . وقس على ذلك كل مرؤوسٍ تلقاء كل رئيسٍ وكل مرعيٍّ ازاء كل راعٍ . فالاول قد رضي وحكم العدل برضاهُ لان مسئوليتهُ لازمة به فهو لا يطالب الا باتمام ما امر بعمله ولا يهمهُ عمل سواهُ واما الثاني فمسئوليتهُ لازمة ومتعدية لانهُ مسئول عن العمل من حيث هو وعن كل من قام من عمالهِ بذاك العمل فهو اذن في موقف لا تثبت فيهِ الا قدم اقدامٍ وثباتٍ ونشاط وكلما بعدت همة رب الادارة زادت همومهُ وجسمت اعمالهُ لان الهموم بقدر الهمم

ولا يفوت الخبير ان هذا المطلب الخطير كان لهُ في شؤُون الحكومات الخطيرة شان مهم ترتب على رعايته نقد الرجال واختبارهم ومعرفة مقاديرهم لان الوظيفة محك للموظف ولا سيما ما تعلق منها بالادارة فهي تقضي على اربابها بالابانة والاظهار فتحدق الابصار بتلك المشاهد وتحكم البصائر عليها او لها . ولما كانت نتائجها متعلقة بالعموم من حيث الضرر او النفع استلزم الطبع ان يكون اربابها عرضة لملاحظة العموم وهدفاً لرمي نبال التنديد واللوم او موضوعاً لعبارات الثناء والشكر . فالموقف والحالة هذه هائلٌ مهيب لا بد من ان تدرك صاحبهُ هزةٌ اما عن طرب يولدهُ الشعور باتمام الواجب لوجود الكفاءة واما عن وجلٍ يولدهُ الشعور بالعجز عن الاتمام لفقد الكفاءة وهنا

منشا الفرق بين الرجال

وان لنا من وراء هذا البحث مبحثاً جديداً في شان الادارة بين جانبي الصعوبة والسهولة بالنظر الى الشعوب فهي كما لا يخفى اما متمدنة او متبدية او بينهما وعندنا ان ادارة شؤون الطرفين المتناقضين اسهل من ادارة الطرف المتوسط لان المتمدنة تعلم واجباتها وواجبات غيرها فتعطي كل ذي حق حقهُ وتحفظ للحرية المعتدلة مقامها وتحول دون من يروم العبث فيها ومتى كان لها هذا الشان تنبه رب الادارة الى مواجبه وعلم ان عليه من الرعية عيوناً وارصاداً وانهُ مسئول ومطالب بما يعمل فلا يركب متن الباطل ولا يتخطر بثوب العجب والتيه ولا يجمع قواه العقلية لتوليد الاضرار ودرء المنافع بل يصرفها الى حيث الفائدة ويرتاح الى الرضى عن نفسه لقيامه بواجبه كما يرتاح الى اقناع نفسه بان هنالك من يعلم نتائج عمله فيقابله بترطيب اللسان في الثناء فضلاً عن رعاية الحرمة وحفظ الكرامة

واما المتبدية فهي حليفة الارهاب وآلة القوة وبهما يسهل قيادها لتعودها على ان تدين لرئيسها وتخضع لاشارته وتقتنع بان رضاه عنها كافل حفظ وجودها فاذا احكم رئيسها العمل تمكن من قيادتها كما يحب ويختار ولم يخامرهُ وجل من الانتقاض عليه او العبث باحكامه وبالاستقراء سن لها من الشرائع ما يراهُ موافقاً لمنزلتها

اما الصعوبة كل الصعوبة ففي ادارة الشعوب المتوسطة بين الجانبين فهي لم تبقَ لها اخلاق البداوة لتعامل بما يناسبها ولم تتخلق باخلاق الحضارة

على ما يجب لتعامل معاملتها . ويغلب على الشعوب التي في مثل هذه الحالة انها تنبذ محاسن البداوة في حين لا تاخذ من عوائد الحضارة الا ما بدا من مظاهرها الساقطة وهنا تحط رحال الصعوبة امام الادارة لانها اذا عاملتها بموجب البداوة تظلمت وشكت وارجعتها الى الوراء . واذا عاملتها بموجب الحضارة تمردت وعتت وحكم هذا الشان في الشعوب كحكمهِ في الافراد فالعالم ابن الحضارة سهل الانقياد لانهُ يعلم واجب نفسه وواجب غيره فلا يوءذن لهُ علمهُ بالتقاعد عن الوفاء فهو من قبيل من يدري ويدري بانهُ يدري . والجاهل يسهل انقيادهُ بحكم الفطرة لاستعداده الى قبول العلم فهو من فريق من لا يدري ويدري بانهُ لا يدري. واما المتوسط بينهما فحكمهُ حكم الاحمق فهو من قبيل من لا يدري ولا يدري بانهُ لا يدري

على ان الادارة بجميع انواعها لا يستاثر بها مديرها استئثاراً يكفيه موءونتها على واجب امرها وفريضة حكمها الا اذا استقلت لهُ ارادة تتصرف فيه بالرشاد والسداد والحكمة والمعرفة وتسير به في الجادة المصونة بالقانون والمضبوطة بالقواعد العامة حتي يحتاط باوامرها ونواهيها ويضمن سلامـة مباديها وغاياتها اجابة لارادة الوازع — واننا بما نذكره عن استقلال الارادة لا نعني به الاستبداد فان بين الطرفين بوناً شاسعاً وبعداً سحيقاً ومـا الاستبداد الا الآلة الموثرة على هدم كل ادارة وتخريب كل عمل بل هو جرثومة الظلم ومنشا الثورات وعلة التاخر وذريعة الانحطاط وقد قضى عليه الجيل التاسع عشر المزدهر بالعلم والمعرفة قضاءً صارماً بزجه فـي

دركات الهاوية . ولكننا نعني باستقلال الارادة ان يكون لمستلم الادارة ارادة لهُ تعمل في تلك الادارة بموجب قانونها لا ان يكون خلياً منها بمثابة آلة لا ارادة غيره فمن لا ارادة لهُ لا ادارة لهُ

فاولئك هم ساسة الحكومات والممالك والقابضون على زمام ادارتها يسيرون مع من دونهم من العمال علي وتيرة واحدة في الخطط التي اختطها القانون ولا يتخطونها بوسع الخطى حتى لا يخرجوا عنها ويلم العبث بالقانون فيفسد النظام فكلهم خاضع للقانون فهو الرئيس العام والاصغر منهم خاضع بموجب هذا القانون لمن هو اسمى منهُ ولكنهُ مستقل ارادة ليسعه القيام بادارة ما اتاحت لهُ السلطة تدبير شوءونهِ فالمامور مثلاً هو رئيس على رجال مامورية ولهُ من السلطة اختصاصات صرح بها القانون ثم هو مرووس من المدير يتلقى منهُ التعليمات ويبادلهُ ما عندهُ من اعمال ماموريته . فللمامور اذاً بصفة كونه رئيساً ان يستقل ارادة للقيام بواجب ادارته والا سقطت حرمتهُ عند من ياتمرون بامرهِ . وعلية بصفة كونه مرؤوساً ان يرفع الى رئيسه شرح متن اعمالهِ . ولرئيسه في هذه الحالة ان يطالبه بما يقضي عليه القانون وان يكلفه بما لا يقضي به وقس على ذلك حلقات السلطات بفروعها فضلاً عن حلقات الاعمال علي اختلافها حتى يرجع الجميع الى القانون العام المشروع لتلك الحكومة او الدولة

فاذا اتزنت هذه المطالب ولم يعثورها نتض . وابرام ازدانت الادارة بسلامة احكامها واقبل العمال على العمل وهم عالمون مواجبهم ومسترشدون

بدليل النظام ومعتضدون باستقلال الارادةوالا رمحوا في بيداء التيهواعتسفوا سبل الضلال وركبوا متن الغرور وبالتالي اخلدوا الى الرضى بالحاصل احسن او اساء أضرّ او افاد واستكانوا الى القبول بما طالما غادروه عن انفة وعزة وشرف وكرامة فاقتنعوا والحالة هذه من مرارة حقيقة المنصب بحلاوة ذكراه وهزوا المنكبين وقالوا لنا جعل نستوليه ولا يعنينا ما هنالك . ومن هذا المبدا نشأت الصنيعة او ما يطلق عليه بين العموم لفظ „ المحسوبية " التي تحمل رب الادارة على نبذ القانون ظهرياً والتطاول الى ما لا يعنيه في سبيل تركه ما يعنيه فيضع الاشياء في غير مواضعها ويستوي لديه الحق والباطل ولا يلبث ان يمسي اٰلة على من تمكنه الايام من الاضرار بهم اجابة لاغراضه او لدعوة مريديه ثم آلة تحركها يد القوة الضاغطة فيعمل ولا ارادة له . وفي مثل هذه الحالة يعلم المدقق الخبير ماهي مزية استقلال الارادة في شؤون الادارة

وان رعاية هذا الشان كانت ولا تزال الذريعة الباعثة على صون الادارة في غالبية الممالك الغربية فاستتب نظامها واستقامت شؤونها كما كان عدم رعايته في شرقنا وصلة للاخلال والعبث فافضى الى هدم النظام والتلاعب في الحقوق والاحكام حتى ادركتهُ العناية بعهد رب الجلالة والشوكة مولانا السلطان الغازي عبد الحميدخان فجلا بشموس حكمته دياجي المظالم وانار ابصار الرعية وبصائرها بمشكاة عدله ورحمته فانتبه الحاكم الى مواجبه وعلم المحكوم حقوقهُ وبالاستقراء نالت البلاد ما اعد لها القانون وحق ان تنالهُ فرثت

الالسنة آيات الدعاء بحفظ جلالته وتاييد مملكته

ولقد كان لهذا القطر العزيز من سمو عزيزهِ وتوفيقه ما ادرك به الغاية من هذا المطلب المجيد وحقق برعايته امانيهُ من نحو هذا المبدا القويم فاخلد الاهلون الى جنان الرضى ولازموا حظيرة الاخلاص اذ وجدوا في سمو اميرهم ذلك الامير الذي عاملهم بالاحسان وقابلهم بالانصاف فهادوه قلوبهم وسالوا الله ان يطيل ايامه عليهم محفوفاً بسلامة الانجال وصون الآل

﴿ الفعل الجميل يجيبه الذكر الجميل ﴾

(في ٥ افريل سنة ١٨٩٠)

خلق الانسان ليعمل فهو من يوم يدارهُ الوجود متحرك ولا ينفك يلازم الحركة وتلازمه حتى يجود بالنفس الاخير — هكذا شاءت العناية وهكذا قضى ناموس الوجود

فالمرء اذن مطبوعٌ على العمل فاذا لم يجب داعي الطبع ابتزته الطبيعة · وهو مع القيام بفرضه اما ان تترامى به صحة المبادئ الى جنان الاحسان في العمل فيوفي حقَّ تلك الارادة التي سخرته لذلك واما ان تتقاذفه خسة الجهل الى بيداء القبيح فيهِ فيجفوها وشتان ما بين الجانبين · وعن ذلك نجم التفاوت والفرق بين بني آدم فالفعل اذاً عنوان الانسان وهو له بمثابة الثمر من الشجر

ولا يعزب على القارئ ان العمل بين طرفي الخير والشر يختلف سمواً وضعةً اختلاف موءثراته فاللازم منه محصورٌ في دائرة لزومه ونفعه وضرره

محصوران وبعكس ذلك المتعدي منهُ الى غيره فان توسيع نطاقــه باعث على توسيع النفع والضر وشمولهما. ولذلك جاءَ إنَّ خير الناس من نفع الناس ومقتضى الطبع في عكسه ان شر الناس من اضر الناس

واذا تبينا هذا المبدأَ وسرحنا طرف الطرف في بحابح الحقائق وصلنا الى نقطة لا تدفعنا عن ملازمتها خطوط ولا يذهلنا عن حرمتهــا مشهد الا وهي العلم الوثيق بان سمو الفعل لوجهتي الضرر والنفع انما تدرك غايتهُ الحقيقية في عمل من يتولى مصلحة العباد فان فعلهُ شاملٌ عامٌّ لافراد ولجموع فنفعهُ او ضررهُ يتناول جميع من يتولى امرهم او يقوم بتدبير شوءونهم . وهذه المهمة هي التي اتاحت للراي العام الملاحظة العامة ولولا ذلك لما سئل العامل عما يفعل اذا اقتصر عملهُ على نفسه دون ان يمس غيرهُ . فرب الوظيفة والحالة هذه مسئول امام نفسه بواجب خطيرة تقيم صاحبها وتقعدهُ لدى تنائيه عن القيام بما فرضه عليه العدل والقانون من نحو ادراك تلك المواجب ومقابلتها باستعداده فان كبار الرجال لا ينظرون الى المنصب من حيث التربع في دسته والخيلاء في منصته والتعثر بذيل مجده بل من حيث يستلزمه ذاك المنصب من المطالب والحقوق والقوانين والصيانة وما وراء ذلك من التبعة التي تلازم العامل من يوم يستلم الزمام الى يوم يغادرهُ ولهُ من بعده بل الى الابد اما ذكرٌ جميل مشفوع بالرحمة لسبوق فعلٍ جميل واما ذكرٌ قبيح مشفوع باللعنة لسبوق فعل قبيح

فالشان في تولي مصلحة العباد تراهُ الخاصة كما يجب ان يكون فتعلم ما

لهُ عليها وما عليها لهُ واما العامة فتراهُ كما يجب ان لا يكون فتسأل مالاحق لما فيه وتغضي عما لها حق فيه. ومن هذا القبيل ايضاً ارباب الولاية فهم بين عالمين بحقيقة ذلك التشأ ن فيشرفون المنصب بايفائهم حقوقهُ وبين جاهلين تلك الحقيقة فيكونون فيه ضغثاً على ابالة . وهذا هو منشأ الفرق بين رجال الممالك واممها

ذلك هو البرنس بسمارك فريد رجال المانيا واحد افراد الجيل التاسع عشر اعدت لهُ كفاءتهُ الطبيعية والاكتسابية مكاناً وصل به الى الجوزاء سمواً واستلم زمام سياسة دولته بذراع الهمة والنشاط ودبر شؤونها الداخلية والخارجية بالنيرة الوقادة والفطنة النقادة فكان لهُ في تاريخها صحائف ثناء وشكر وفي ألسنة اقوامه ترديد مديح وذكر حتى احلتهُ محل القائد الامين ووثقت بعدم انفكاكه عن منصة احكامها الى ان افضت حركة الايام التي تتغلب على الظنون وتدفع اليقين كالشك ولا معاند لها الى ما علمنا من امره وهو استقالة هذا الرجل العظيم من ذاك المنصب الخطير لاسباب تباينت مبدأً ومغزى وقد ادرجنا جلها في سابق اعداد الاهرام فلاحاجة لاعادتها

ولما حدث هذا الامر اضطرب لهُ السواد الاعظم من رجال الممالك وقلقت لهُ المانيا لانهُ لم يدر في خلد احد توقع الوصول الى هذه النقطة والرجل حيٌّ. ولكن لا يخال لنا ان البرنس كان واثقاً وثوق الناس بملازمته منصبهُ لان سمو مداركه لا يؤذن لهُ بان يضغط على فكره لينحول بذلك

الى الاقتناع بما يباين مبدأ الطبع والوضع من حيث تصور الدوام لغير الدائم كما لم يفته انه للبلاد لا البلاد له فهي الباقية وهو المتحول . ولذلك وجه عنايته وهو في مجال العمل الى ان ياتيها الفعل الجميل ليجيب اولاً داعي الذمة والشرف والضمير ويلبي ثانياً امر الطبع من ان كل امرئ يسعى الى ذينك الحرفين الدافعين اليد الى الاشارة واللسان الى النطق بهما وهما « ذا » وكلا الامرين محمود وذلك هو علة التباين والتفاوت

فالرجل والحالة هذه قد اتى الفعل الجميل لامته فوفى بحقوق المطلبين ثم استقال وعواطفه تشعر بالعزاء والسلوى لانه راى من مظاهر ابناء جلدته ما سعى اليه فقد قوبل وعومل منهم مستقيلاً بافضل مما عومل وقوبل موظفاً وكان الطرفان على جانب الرضى من قيام كل منهما بما عليه للآخر بل كان لسان حالهما يقول « الفعل الجميل يحييه الذكر الجميل »

وقس على ذلك تاريخ الرجال العظام ونخص منهم الحديث عهدهم فقط كتييرس وغامبتا ومحمد علي وديزرايلي وغرتشاكوف وغيرهم من رجال المشرق والمغرب الذين غادرتهم المنون فضلاً عن الرجال العظام الذين لا يزالون احياء ولهم في خدمة اوطانهم وسواها اليد البيضاء والفعل الجميل . ولنا من غير رجال السياسة والاحكام رجال افاضل خدموا العالم خدمات شريفة حفظت لهم ولاعقابهم الذكر الحسن ولو لم يكن غرضنا محصوراً ببحثنا هذه في الفريق الاول لوفيناهم حقهم ولكننا سنأتي على بيان فضلهم في لمحة اخرى فالتمثيل والاقتداء وتاثر الخطى لهامن الفواعل مفاعيل امينة الواسطة

حسنة المصير وقال الشاعر

فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالكرام فلاحُ

واذا تبينا ما دوناه وتراجعنا في احكامه الى موارد البحث ومصادر الامتحان ثبت لنا ما اشرنا اليه من ان سمو الفعل لوجهتي الضرر والنفع انما تدرك غايتهُ الحقيقية في عمل من يتولى مصلحة العباد وان عظمة النتائج العائدة على العامل في الامرين تابعة لعظمة الموضوع فيها وذلك كان المهاز الفاعل في شاكلة ارباب المناصب الذين عرفوا حقوقها وادركوا مواجبهم من نحوها وعلموا انهم لا يحسن ان يكونوا لها من قبيل الصاحب الاول ايضاً على نحو ما قالهُ الحسن رضي الله عنهُ من ان الاصحاب ثلثة واحدٌ كالغذاء لا يستغنى عنهُ وثانٍ كالدواء يحتاج اليه في بعض الاوقات وثالث كالداء يستغنى عنهُ ابداً بحيث دأبوا على العمل ووقفوا النفس في سبيل الخدمة الوطنية لا وجهة لهم الا تشريف تلك الخدمة ولا غاية الا نيل الفائدة العامة من احسان القيام بما انتدبوا اليه مشفوعاً بنيل ما يسالهُ الطبع وهو طيب الثناء وحسن الاحدوثة في الحياة واحياء الذكر بعد الممات فان الفعل الجميل يحييه الذكر الجميل

وينعكس هذا الموضوع لدى من ينعكس في ظلمات اغوار الغرض وانجاد الغاية النفسية اما عن سليقة الفها الطبع وهو غلاب واما عن اكتسابٍ غير ممدوح صدرت اغيارهُ عن سوء التربية فنكب عن سوء السبيل وصرف العناية الى سد جشع الطمع دون النظر في حلالٍ او حرام

ووقف النفس في سبيل انفاذ الغرض دون رعاية الاحسان والاساءة ولم يرضَ بالاكتفاء بهز المنكب وترديد القول ان لي جعلاً اتولاه ولا يعنيني ما هنالك حتى قفاهُ بما هو ادهى وانكى من نحو اثارة الشجون وتفريق الكلمة محاولاً اقناع نفسه باستواء الاصابة والخطاءِ والحسن والقبيح واعتبار طيب الاحدوثة من قبيل المجون والخزعبلات او اكتفى بعدم الذكر ففاته انهُ كما ان الفعل الجميل يحييه الذكر الجميل كذلك الفعل القبيح يحييه الذكر القبيح

ولا مراء ان هذه الصورة ترتسم امام اعين العامة بين حسن وقبيح ممثلة من يقوم باعمال العامة لتحويل النظار اليها بناءً على توقع الفائدة او المضرة وليس من ذلك شيءٌ بالنسبة الى من لا شأن لهُ الا في نفسه او خاصته . ومن هذا القبيل توجيه الحكم على الشخص بالنظر الى افعاله الخصوصية فلا حجة للائمة عليه اذا كان غنياً وبخيلاً على نفسه ولكن لهُ عليه الحجة في ما اذا قصر عن ان يفيد غيرهُ من بني البشر من ماله ولو لم يسرف في الانفاق على نفسه. اي ان الانسان الغني البخيل يروق لهُ ان لا يتدثر باللباس الفاخر والطعام المتقن والشراب اللذيذ وذلك انما هو ذوقهُ وهو لا يتعدى الى غيره بل لازم لنفسه فلا ضرر ولا اضرار على سواهُ ولكن امساكهُ الدرهم عن النفع وهو قادر عليه مضرٌ قدوة وتمثلاً بل هو من قبيل العيب والنقص وقال المتنبي

ولم ارَ في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمامِ

والخلاصة ان المكلف بخدمة العموم انما هو اليف الموقف الضنك والمركز الحرج والهدف العام لرمي السهام والمطالب من الذمة والطبع والانسانية بالتقاضي امام محكمة الضمير والشرف فلا مفر لهُ من القيام بما ندب اليه ولا خلاص لهُ من هذا المركب الخشن الا اذا عرف حدهُ فوقف عندهُ وجرد النفس عن الاهواء المنخرفة وعلم ان عزة النفس وكرامة الاخلاق وصحة المبادي والشرف من تليد وطريف تستلزم طبعاً سليماً يحافظ على الشرف بخدمة صادقة تدفع اليد الى الاشارة اليهِ بذا وتستدعي القلم الى تدوين عبارة تكون خير ذخر لهُ ولاعقابهِ وهي « الفعل الجميل يحييهِ الذكر الجميل »

﴿ صهوات المناصب لفوارس التجارب ﴾

(في ١٢ افريل سنة ١٨٩٠)

سأَل احدهم حكيماً « من اجلُّ الرجال » اجاب « من قام باجل الاعمال » قال من هو وما هي . أَجاب « من قاد ابدان الناس بقلوبها وقلوبها بخواطرها وخواطرها باسبابها » قال اذن تعني رب المنصب ومنصبهُ . اجاب « انت قلت »

والى هذا المعنى اشار ارسطو الفيلسوف في ما كتبهُ الى الاسكندر قال « املك الرعية بالاحسان اليها تظفر بالمحبة منها واعلم انك تملك الابدان فاجمع لها القلوب لان الرعية اذا قدرت ان تقول قدرت ان تفعل . فاجتهد

ان لا تقول تسلم من ان تفعل »

نتج مما ذكر ان سياسة المنصب من أجل الاعمال وان القائم بمواجبها له امتياز الفضل بين الرجال ولا غرو فان المرء ليتولاه الشعور بالفخر وتتلقاهُ نوافل الثناء وهو لم يحسن القيام الا بسياسته وسياسة خاصته فكيف به وقد اضاف الى ذلك احسانهُ سياسة العامة ولما كان مقدار فضل المرء على سواه موقوفاً على مقدار نفعه سواه كما جاء في الحديث الشريف (ان خير الناس من نفع الناس) كان لرب المنصب ما ليس لغيره من الذرائع التي تعد لهُ سعة المجال في سبيل نفع الناس . وقد اشرنا الى شيء من ذلك في لمحتنا الفائتة التي جعلناها كمقدمة لمحتنا هذه

وليس يخفى على البصير ان المرء يطالب بقدر مكنته ووسائطه اذ لاجود الا من وراء موجود فاذا امسك موسراً ليم لوم من بسط معسراً .

واذا نشرت لهُ الايام بساط العمل فطواه اما بذراع ادماها سهم الخمول والكسل واما بيد اشلها الغرض والحمق قضى عليه العدل بعقاب من عاكس احكام الوضع والطبع وخالف قانون العرف والشرع . وهل تفترش الايام بساط العمل لرجل اولى من رجل المنصب فهو ولا مراء شريك الطبيعة في المحافظه على قوانينها والاحتفاظ على نواميسها بل هو آلتها المنفذة لاحكامها والقائمة بحركة دقائقها فاذا لم تكن صالحة حالت دون الحركة فنشأ الضرر . وقد قيل « اذا زل العالم زل بزلته العالم » ومثل ذلك زلة من يتولى مصلحة العباد ويقوم بسياستهم فهو قد عهد اليه اهم اعمال الانسان فكان مركبهُ خشناً

وموقفهُ هائلاً وحسبه من صعوبة المراس جمعه من الاضداد ما قاله عمر رضي الله عنه وهو " لين لا يتولاه ضعف . وقوة لا يمازجها عنف ". او ما قاله آخر " تواضعٌ عن رفعة . وزهد عن قدرة . وانصاف عن قوة "

واذا سبرنا غور الحقائق بامعان الفكرة وانعام النظرة وانسنا الى صحة المباديء التي شرحنا متونها وقفنا امام المنصب وقد حفرت بنان الحق في قوائم كرسيه الاربع اربع كلمات وهي . وطنية . حكمة . همة . مسئولية . فوجدنا الموقف هائلاً لان من ورائه التقاضي الى محكمة مهيبة عادلة قانونها الذمة وقاضيها الضمير ومنفذ احكامها الشرف فمن العبث اذاً ان يهزّ ذوائب الرحال الى المنصب من لا تهصر اعطاف الوطنية في مقامه . ولا يجنى ضرب الحكمة من ضروب بنانه ونفثات اقلامه . ولا يسل سيف الهمة من اجفان نشاطه واغماد اقدامه . ولا تشام بارقة شعور في افق ضميره من سحب نقضه وابرامه

اما الوطنية فهي المحور الذي تدور عليه كرة الخواطر او النقطة التي ترسم منها دائرة الشعور والعواطف . يولدها الطبع وتنميها التربية ويكفلها الشرف وتعززها الاريحية ولها على المرء من الحرمة ما لوالديه عليه لانها تقوم باكتفائهما ليقوما باكفائه ولم تعمر البلدان الا بمحبة الاوطان ولذلك قالوا ان حب الوطن من الايمان . فعلى صاحب المنصب ان يتصف قبل كل صفة بالوطنية الصادقة ويأنس الى وفاء حقوقها العامة قبل النظر في وفاء حقوقه الخاصة لاشتمال الاولى على الكل والثانية على الجزء والجزء داخل في الكل

وان له من احتضان الطير لعشه مهازاً لشاكلة تنبهه

واما الحكمة فهي الدعامة الثانية المتممة للوطنية لان مجرد الارادة في الميل الى العمل لا يغني ما لم يشفع بقوة فاعلة مدركة تتبين اوجه العمل والذرائع التي تنطبق على ذاك الميل وتجاوب على تلك الرغائب الصادقـة والا اضاع الميل القويم استكانةٌ عن خمول او نزق عن جهل فأتى الضرر من حيث يرجى النفع ووقع الخطأُ من حيث يرام الصواب ومن هذا القبيل قولهم „ عدوٌّ عاقل خير من صديق جاهل "

واما الهمة فمن متمات الحكمة لانها القوة المنفذة لها والكافلة اغتنام نتائجها بل هي التي تمتطي الليل والنهار في مجاهل العمل انفاذاً لما تشعر به الوطنيـة وتقضي بايجابه الحكمة فمن ثبطت همتهُ عن السعي الى الامام نقلتهُ ادوار الايام الى الوراء

واما المسئولية فان هي الا خلاصة القوى الثلث ومن خصائصها التنبيه والتحذير وصون رب المنصب من الخطل في القول والزلل في العمل عن رعاية لحرمتها وادارك لاهميتها فمن لا يسال عما يعمل ياخذهُ دافع من اثنين اما قعود يمازجهُ كسل واما غرور يخالطهُ طيش وفي الاولى سقوط وخمول يفضيان الى الاضاعة والضعة . وفي الثاني استبداد وظلم يؤَديان الى النفرة والضغينة وبئست نتيجة المقدمتين

ولكن بأي شيءٍ تقوم الوطنية يا ترى . أ بالدعوى بها قولاً والاغماض عنها عملاً . أَم بمجرد الانتماء النسبي دون القيام بواجبه . ام بالتحامل على

قريب لم يسيء ام بكسر اقفال الابواب الموصدة دون تداخل الغريب . ام بنسيان الواجبات التي تستلزمها الوطنية عن مبداء الدين والشرف – كلاَّ ليس ما ذكرناهُ من الوطنية بشيء فالقول لا يصدق حتى يشهد به العمل ولان لم نقل ولم تفعل خير من ان نقول ولا تفعل وافضل منهُ فعل لا يسبقه قول وما الطف ما قالهُ صفي الدين الحلي في مثل ذلك اذ ضمن في شعره مثل البلبل والصقر فقال البلبل مخاطباً الصقر

وقال اراك جليس الملوك ومن فوق ايديهم تحملُ

وأنت كما علموا اخرسٌ وعن بعض ماقلتهُ تنكلُ

وأحبس مع انني ناطقٌ وتدريَ عندهم مهملُ

فقال صدقت ولكنهم بذاك دروا أنيَ الافضلُ

لأَني فعلتُ وما قلت قطُّ وانت تقولُ ولا تفعلُ

واما مجرد الانتماء دون القيام بلوازمه فالصفر عن يسار العدد لا قيمة لهُ او كواو عمرو تكتب ولا تقرأُ بل هو عيب لا يستر وذنب لا يغفر . ومثله ايقاع الاذية بمن لم يسيء تشفياً وانتقاماً عن جهل بدعوى ان ذاك ليس منا مع ان السياسة تقضي بان تعتبر من ليس عليك في مصاف من هو معك ويعاكس ذلك تمهيدك لمن هو عليك السبيل الذي تمهدهُ لمن هو معك من قبيل وضع الشيء في غير موضعه . ومثل ذلك اغضاؤك او صمك الاذنين دون استماع صوت الدين والشرف اللذين يلقيان عليك بان تفدي وطنيتك بما عز وهان وتحتقر في جنب صونها كل مصلحة خاصة ولئن

عظمت وتحترم كل مصلحة عامة ولئن حقرت — تلك هي الوطنية الحقة الصادقة التي يجب ان يتحلى بها كل ذي منصب ورئاسة

ثم بماذا تقوم الحكمة الوطنية ياترى . ابالاستبداد في الراي والعمل . ام باتخاذ المنصب ذريعة للاضرار بالناس عن اجابة لانتقام او اصاخة لاشارة . ام بتفريق كلمة ابناء الوطن وايجاد الشقاق بينهم ودفع الواحد منهم للايقاع بالاخر . ام بانفاذ الغرض الخاص وتحميل المؤتمرين بالامر ما ليسوا مكلفين باحتماله . ام بأسر الارادة في شؤون الادارة واطاعة كل اشارة . ام برفض كل امر ثم القبول بكل امر . ام بتفضيل حلاوة المنصب مجردة على مرارته مركبة وقد نتجت المضرة من بينهما وحكم العقل والعيان بها وابى الطبع الشريف قبولها — كل ذلك بينهُ وبين الحكمة بونٌ شاسع وبعد سحيق فاما الاستبداد فضرب من ضروب الحماقة وقالت الحكماء (الرجال ثلثة رجل ونصف رجل ولا رجل فالاول من له رأي ومشورة والثاني من لهُ رأي ولا مشورة لهُ والثالث من لا راي له ولا مشورة) فالمستبد لا بد من ان يكون ثاني الثلثة او ثالثهم . ولا يعزب عنا قوله " وشاورهم في الامر . والمشورة من الروح القدس " وقال الشاعر

اقرن برأيك راي غيرك واستشر فالامر لا يخفى على الاثنين
للمرء مرآة تريه وجهه ويرى قفاه بجمع مرآتين

وقال الاخر

شاور سواك اذا نابتك نائبة يوماً ولو كنت من اهل المشورات

فالعين تنظر منها ما دنا وناى ولا ترى نفسها الا بمرآةِ

وقيل لرجل من عبس ما اكثر صوابكم قال نحن الف رجل وفينا حازم واحد فنحن نشاوره فكاننا الف حازم

واما اتخاذ المنصب ذريعة للمضرة فمن اكبر المعايب واخس الافعال فعلى رب المنصب ان ينسى صفته الخاصة وهو في منصبه ولا ينظر الا في صفته العامة التي تحظر عليه الانتقام اما لغاية داخلية او لاشارة خارجية فان ذلك من الدنايا التي يترفع المنصب عن النزوع اليها. ومن لؤم الطبع اندفاع القوي الى الاضرار بالضعيف ولئن لم يحل دون ذلك حائل فكيف به وقد قام حاجز حصين هو منصة المنصب يحمل دعامتها نجاد حسام العدل والحق ولذلك امتاز كبار الرجال بتنكبهم عن هذه الخلة وشرفوا مناصبهم برعاية ما ظهر لهم صوابه ولو بدا من عدو الد فضلاً عن صديق اود ثم الاغضاء عما لم يأتِ على مرادهم او لم يلائم سياستهم

بل اية هي الحكمة الوطنية من وراء نثر النظيم وتشتيت الجميع اذا كان رب المنصب يثير ثائرة الحقد من هذا على ذاك ويفرق كلمة الرعية المؤتمرة بامره ويولد الضغائن والاحقاد في القلوب بانشاء الاحزاب المتباينة وتعضيد الواحد للتغلب على الاخر اما لانتقام خاص عن كره بذاك واما لغاية اخرى من مثل توهمه انهُ بتفريق كلمتهم تسود كلمهُ فيأمن في سربهِ وينال مرامهُ ويجاوب جشع طمعه. بينا تقضي الحكمة بجمع الشتيت ونظم النثير وازالة الاحقاد وتأليف القلوب ونبذ التنافر. ومثل ذلك يقال عن

تحميلهم ما ليسوا مكلفين باحتماله بان يكرههم وهو غير مصيب او مسوق اليه بموجب قانون على قبول ما يكرهون وهم مصيبون وغير مكلفين اليه بقانون والا يعلم ان من تداخل في ما لايعنيه يسمع ما لا يرضيه وان ليس في القانون محاباة وجوه ومراعاة خاطر وقال الشاعر على سبيل التمثيل

ولم انسَ المليحة حين راحت الى قاضي المحبة تشتكيني

فقلت لها ارحمي ضعفي فقالت وهل في العشق يا امي ارحميني

بل كيف يليق به وهو يرى نفسهُ اهلاً لمنصبه او اسمى منهُ ان يكلف من يأتمر بامره اما عن رجاء او عن تهديد تحميل ما يكره وهو غير مكلف به. فهل ذلك من قبيل الحكمة الوطنية والطبع الشريف والمنزع السامي. ومن هذا القبيل ايضاً عدم استقلال الارادة في شؤون الادارة وذلك ما استوفينا شرحهُ في لمحة سابقة فلا حاجة لاعادته

وليس من الحكمة ايضاً رفض رب المنصب كل ما يطلب اليه ثم قبوله بكل ما رفض لانه اما ان يكون الرفض عن انفة واستكبار اجابة لخلق غريزي يرتاح الى مجرد النهي والامر دون النظر في صوابية المطلوب واما عن اقتناع مسبوق بتروٍ وامعان بان المطلوب لا يناسب فان كان الاول ولا مناص من القبول فالاولى عدم الرفض لان مرارة العود الى القبول تربو على حلاوة الابتدار بالرفض وان كان الثاني فالثبات على الرفض اولى ولا عبرة للصانعة اذا كان هنالك سبيل للتخلص منها والتنصل من تبعتها. ويقاس على ذلك تفضيل الحلاوة المجردة التي كدرتها المرارة المركبة فان

في منابذتها حلاوة لا تعقبها مرارة ووسيلة للتجرد عن مضرة تكتنفها معزة

ثم بماذا تقوم همة الحكمة الوطنية أ بالنزوع الى انفاذ العمل دون رعاية الظروف . ام بالضغط الشديد المتولد عنه ضغط متسلسل — ليست هذه الهمة تقوم بمثل ذلك لان الاسراع في انفاذ العمل دون رعاية الظروف يدعو في كثير من الاحايين الى تجاوز الحقيقة والتخطي الى الاعتساف فلكل مقام مقال والاشياء مرهونة باوقاتها وكثيراً ما افسد العمل التسرع في انفاذه ولذلك قالوا " في العجلة الندامة وفي التأني السلامة " واما الضغط المنوه عنه فاقل ما فيه انه يدفع العمال بالتسلسل الى الاخلال بالقانون والعبث في احكامه وما احسن ما جاء عن معاوية في هذا الشان قال اني لا اضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني . ولو ان ما بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت . فقيل له وكيف ذلك قال . كنت اذا مدُّوها ارخيتها واذا ارخوها مددتها

ثم بماذا تقوم المسئولية من وراء ذلك ابالاسراع في العمل حسن ام قبح . ام بمجرد النية به دون انفاذه . ام برفعها عن كاهله والقائها على كاهل غيره — كلالا تقوم المسئولية بمثل ذلك ولكنها قائمة بان يعلم ربُّ المنصب انه مسئول امام منصبه اولاً من ربه ثانياً من ضميره ثالثاً من شرفه رابعاً من اميره خامساً من وطنه سادساً من خاصته . وبان يعلم عظم هذه المسئولية واهميتها وما يترتب عليها لهُ ولوطنه من مضرة ونفع وخير وشرّ . وان عليه تلقاء ذلك مواجب ذات شأن تقضي عليه بمغادرة الوسن وملازمة السهر

ومزاولة العمل ومراقبة الحوادث وانتهاز الفرص ومنابذة الاغراض والترفع عن الدنايا والتجلد على الشغل واحتمال اثقاله بالصبر والتوءدة والرفق بمن يأتمرون بامره وزرع بذار الاتحاد والفة والمحبة بينهم واستئصال جراثيم الشقاق والخلاف والضغائن والاحقاد بحيث يكون لهم بمثابة اب واخ وابن فيبرّ اباهُ ويحفظ اخاه ويرحم ابنهُ

تلك هي مسئولية رب المنصب بل تلك بعض المواجب التي عليه ولا سبيل لتنصله من تبعتها اذا لم يقم بها فاذا قرن استقلال ادارته بحسن ادارته اتاحت لهُ الايام ادراك غايته ونيل بغيته فلزم الوظيفة يشرفها وتشرفهُ واستمال اليه قلوب من سلم زمام امرهم فاخلصوا لهُ في السر والنجوى ووثقوا بعدم تغيره عنهم في سلوكه لوثوقه بان نفسه اسمى من منصبه على نحو ما قال ارسطو وقد سئل عما دفع زيداً الى التغير بعد الولاية فاجاب بقوله " من وُلي منصباً وكانت نفسهُ اكبر منهُ لم يتغير لهُ ولكن اذا كانت نفسه اصغر منه تغير له "

فالمنصب اذاً مقام خطير محفوف بالمصاعب فمن الخطا ان تراه العامة بالنظر المجرد فتحكم بان صاحبه آمر مطاع لا يهمه الا اصدار الامر ونيل الراتب بل يجب ان لا يفوتها العلم بحقائقه من ان صاحبه اليف الارق حليف الفكر رفيق الهموم حديد اللحاظ شديد التأثر مديد التصور هدف لسهام اللوم عرضة لملاحظة العموم مسئول عن كل ما يفعل عدو لنصف من يرعاهم ولو عدل بعيد السخط قريب الرضا. ومن كانت هذه مواجبه وكلها

مرارة فهل يحلو له ذكر المنصب في حين هو على حد المثل القائل "درهم من عسل على قنطار من خشب" وحسبه هماً اضطراره الى الاحتفاظ على احكام السياسة ليتذرع بها الى نيل غاية صعبة المنال الا وهي استمتاعه بهيبة الخاصة مع صدق مودتها واقتياد قلوب العامة بالانصاف اليها. وقد قل بل ندر من حنكته تجربته ومكنته حكمته من الوصول الى هذا المطاب ولذلك قلنا. ان صهوات المناصب. لفوارس التجارب

﴿ ارفع علم الحق يتبعك اهله ﴾

(في ١٧ لوليو سنة ١٨٩٠)

لما ولي يزيد بن معاوية قلد عمالة خراسان لابن زياد وقال له "ان اباك كفى اخاه عظيماً وقد استكفيتك صغيراً فلا تتكلن على عذر مني فقد اتكلت على كفاية منك واياك مني قبل ان اقول اياي منك فان الظن اذا اخلف مني فيك اخلف منك فيَّ" وقال ابو جعفر لعمرو بن عبيد" ارفع علم الحق يتبعك اهله"

كان للشرق في سابق عهده طورٌ عبثت باحكامه عاصفة الجهل وضغطته عوامل الاستبداد فوقف بين آمر تناول اكثر مما له وبين مامور اضاع ماله فوقع التوازن في الخطاء ولم يقع في المواجب ونشأ عن ذلك تناهٍ بين النقيضين منع الطمع والجهل عودهما الى نقطة الاعتدال وقد اتفق العهد بين الغرب والشرق على التباين في المبداء فالاول كان يخترق اجرام الظلم

والاستبدادويقدّ قدّ الاطماع ويفري بدرع الاذلال ويركب متون الاخطار لنيل كل خطير ويستطيل الى هدم صروح الخلاف وتشييد قصور الوفاق والوئام زغماً عما هنالك من الموانع في حين كان الثاني متماملاً تحت وقر المظالم خائضاً غمرات الذل والخمول ممنياً بنكبات الاطماع وضربات الاستبداد. وقد بدا للعيان اذ ذاك ما كان من النتائج في الجانبين وبضدهـا تتبين الاشياء

على ان ذاك الطور لم يتحول عن مجراه لمجرد نظرة ولدت حسرات او نهضة فجائية اوجدتها الطفرة بل جاء ذلك عن مبادي اختلفت اوضاعاً واتفقت غاية وكان لفضل العناية الشان الخطير في الوصول الى نقطتنا الحاضرة لاننا اذا تراجعنا الى ابحاث التاريخ من قصير العهد وضح فيـه بجلاء ان ذاك الانقلاب لم يتم حقيقة الامن يوم تعاهدت العناية السامية البلاد المشرقية بادلاء السلطة الى من شرفها واعلى مكانها وجمل احكامها اعني من يوم ازدهى وازهر العرش العثماني بجلالة سيدنا ومولانا السلطان الغازي عبد الحميد خان اطال الله ايامه. ورفع بالنصر اعلامه فهو الذي احيا عصر الصحابة فملا السلطنة عدلاً ورحمة وشرف مقام الخلافة العظمى وزان المملكة بحميد فعله ومجيد عمله وصواب رايه وسداد فكره بل هو الذي اخذ ماله حقاً شرعياً فاتمه وجمله ثم سلم لغيره ما لغيره بعد ان اتاح له الوقوف على مواجبه والاعتضاد بتحقيق مطالبه

ذلك العهد كان ولا مراء محور انقلاب الطور الى ضده لان حكمة

جلالته بثت في جسم الرعية روح العلم والادب والكمال والهمة والاقدام وصرف العناية الى اغتنام الافضل والاكمل وكفى ان ادرك الشرق ما له وعليه وهو منتهى الغاية المجملة لنيل الارب ومن ذلك الحين عظمت مسئولية الشرقي لان المرء يطالب بقدر قدره وعذر الجهل غير عذر العلم — نتج اذاً ان زبدة الفضل في ما اتانا من الخير العميم والفضل الوسيم انما هي من بركات عناية مولانا رب الشوكة والاقتدار سلطاننا الخليفة المعظم فصرنا والحالة هذه لدى اطلاق سراح الطرف للاحداق في حقيقة حالتين بين رعاة يسألون عما يعملون وبين رعية تسال عن عملها واعمالهم وذلك ما نفيض فيه بلهجتنا هذه توصلاً الى ادراك ما هنالك من المطالب الخطيرة التي يقوم بها نظام كل حكومة وشعب فنقول

لا خلاف في ان الحكم على حقيقة المرء محمول على حكمه نفسه بما يعلم من قدر نفسه وقال الفيلسوف "ان اقصى ما يستدل به على الرجل معرفته قدر نفسه" . وقال الحكيم رحم الله عبداً اعرف حده فوقف عنده. فالعمال في مثل هذا المقام ينظر اليهم غير النظرة التي يقابل بها سواهم لانهم على خطارة مناصبهم موضوع النقد والتنقيب وعليهم مواجب ومسئوليات لا حول عن التجرد منها او التنصل من تبعتها وكثيراً ما كشفت يد المنصب ستار الحقيقة عنهم فبانوا على غير ما علم من شانهم وباءوا بالخجل فاضطرب موقفهم في الحالين وقد كانوا في غنى عن الجديد برعاية القديم لانهم طلبوا الزيادة فمنوا بالنقص ولذلك كان من اهم ما يطلب من العمال ان يزنوا

انفسهم قبل ان يهجموا على المنصب فان اتزنت اهليتهم مع المنصب اقدموا عليه لا يروعهم تغيير وابدال ولا يستوقفهم حادث وانقلاب ولا يلتاع فوءادهم من حرقات الطوارىء ولا يرتاع فكرهم من ضربات الطوارق والا ابتعدوا عنه ابتعادهم عن الآفة ورضوا بما قسم لهم من شغلهم الحيز الوجودي الذي يصلح لمقامهم ويصلحون لهُ وليس ذلك بالامر الجلل لديهم اذا ارادوا ان يكونوا رجالاً لان الامتياز في الادبيات يضارع الامتياز في الماديات فالفقير لا يخجل ولا يلحقه وازع اللوم اذا لم يات بين انفاق وتانق في المعيشة بما ياتي به الغني ولا يحجم عن هذا الموقف الا من سهل سبل السقوط لنفسه ففرح يوماً وحزن دهراً ثم ادركهُ اليأس والقنوط فصغرت نفسه وساقتهُ مدفوعاً بتيارها الى الانتحار على تنوع الوسائل . وهكذا يجب على الفقير ادبياً بالنظر الى غنى غيره ان لا يأنف ولا يستنكف من تجاوز المقام الذي يعد لهُ ولا يصلح للوقوف في بهرته الا اذا داخلهُ الغرور وهو شبكة المرءِ وفخهُ . وكثيراً ما وجدنا من غير الموسرين مالاً ولكنهم موسرون ادباً وفضائل سامية متعلقة بموضوع الموازنة والاحتكام ينفقون على قدر حالتهم ولا يهمهم لوم زيد وتنكيت عمرو فحفظوا لهم في الحال والاستقبال مقاماً يستلزم احترامهم ويقضي بتوقيرهم واجلالهم وعسى ان نصادف من غير الموسرين ادبياً ما يشاكل اولئك ولا سيما لدى منصات المناصب واستلام مصالح عباد الله

واما الرعية فانها من يوم تشرفت بسلطة مولاها الحميد المعظم ادركت

مالها وعليها ونضت عنها برقع الخوف والوجل ووقفت موقف الامين الصادق تضبط بيمينها حقوقها وتدفع بيسارها ما عليها وتعترف بلسانها وقلبها بما لسيدها من الفضل والجميل وقد نزعت المنزع المستقيم في سبيل نجاحها وتقدمها تدفع عنها نواصب التعدي بدرق القانون وترفع صوتها بالشكوى الى المرجع الاعلى لازالة ما يقع من حيف وظلم فترى هنالك اذناً مصغية تشفع باوامر مسددة لايجاب فحص وتنقيب توصلاً الى الحقيقة حتى ياخذ القانون مجراه فيعتدل المعوج ويعاقب المسيء — تلك حالة الرعية بما اباح لها جلالة سلطانها المعظم وهي على فوزها بهذه المطالب الشريفة وتمتعها بفوائد الشرائع والقوانين العادلة موضوع لجسامة اللوم وعظمة الذنب والخطا لدى القصور والتقصير بالنسبة الى حالتها من حيث هي وبالنظر الى حالتها تلقاء العمال القائمين بتدبير شؤونها

على ان الوصول الى هذه النقطة يستلزم تنبه العمال وسهرهم فهم يعلمون كل العلم مقاصد الجناب السلطاني ويدركون ان الغاية الوحيدة المتجهة اليها نواياه الشريفة محصورة في راحة الرعية ودفع المظالم عنها فاذا قصروا عن تلبية هذا النداء لاغراض في النفس او لجهل متسلط ادركهم العقاب من المرجع الاعلى والاحتقار من الجانب الآخر فان عين الاول ساهرة متيقظة تراقب ما هنالك من الحركات وشعور الثاني حيٌّ يدرأُ ما تسلط من خوف ورهبة اوجبها استبداد وحيف. واذا قابلنا بين ما كان عليه الثاني في ما سلف من هذه الحقائق وبين ما وصل اليه في الحال من امرها ادركنا مبلغ

الفرق فهو قد كان بمثابة صخرة صماء تعود على فقد الاحساس يقتبل نوازل العمال وهو صامت ساكن لا يتحرك وكان يرى الطاعة العمياء خير وسائل راحته وبالاستقراء فقدت منه مزية التمييز بين الجيد والردي والحسن والقبيح واستوت لديه الظلمات والنور والهدى والضلال · اما الان فقد تنبه شعوره الى ادراك كل امر فتراه متململاً لاقل حادث لم يقع من مقره الطبيعي كما تراه مرتاحاً الى قبول ما اتى عن حقه وبجزاه

وعندنا ان ذلك مما يجب عليه لا مما ينبغي ان يتعظم للحصول عليه فقد كانت الايام حائلة دون مرامه ولهُ بعض العذر في جانب قصوره ولكن اي عذر لهُ وقد اتاحت لهُ نعم عظمة سلطانه ان يتمتع بهذه الامتيازات السامية التي يتلقى من وراء رعايتها جزيل المنافع ووفرة الفوائد فان العامل ليداخله الطمع ويمازجه الولوع الى اجابة داعي الطبع من الارتياح الى عاطفة الاستبداد فيعيث ويتطاول الى تناول ما ليس من حقوقه وبالاستقراء تتمكن منه هذه الخلة فلا يلبث ان يتعودها ويزيد في الرغبة لتتوفر عنده احكامها ونواهيها حتى تتعاصى عليه فيما اذا شاء اقتلاعها ويكون لهُ ولغيره من وراء ذلك مضار ومشاق واتعاب تذهب بمزايا العامل وتمنيه بالذلة والخسف وتسومه النقص والخمول ثم تعود بوخامة العواقب على المرعي ويدفع هو ثمن مضرته من درهمه · ولكن اذا علم العامل ان الرعية يقظة ساهرة نشيطة تطالب بحقوقها وتقوم بما عليها وتستنكف ما يقع عن عكس ما يامر به القانون ولا يهولها زهو المنصب عن رفع الشكوى الى المرجع

الاعلى استكان وسكن وغادر اطماع الطبع ولزم جانب العدل وارجع الميل المعوج بشكيمة التحذر والاحتراس فلم ينقل القدم الى ما يعقب الندم ولم يتخطَّ فناء القانون وكان لهُ وراء ذلك حفظ المركز وهيبة العامة وحرمة الخاصة وكان للرعية عائدة المنفعة ونعمت العاقبة للطرفين

واننا يسرنا نحن الشرقيين ان نرى حالتنا الحاضرة على ما نتمنى من شأنها فالمصري والسوري والاناضولي بل العثماني دون استثناءٍ قد ادرك الان هذه المواجب وتنبه لرعايتها واجهد النفس في سبيل القيام باحكامها مستنداً في ذلك على عدالة جلالة سلطانهِ وعلى ما افاضهُ عليه مورد العلم من سلسبيل المعرفة والاداب فلم يقف تلك الوقفة الهائلة التي كان يضطرب لها خوفاً من عامل ظالم مستبد بل رأى المشاهد بالعين الصحيحة واطلق اللسان بالشكوى او بالشكر اتباعاً للعمل حتى اسكن العامل وقضى عليه بان يتمثل بقول الحكيم „ اعتدل والا فاعتزل " وذلك هو الشان الاخير من هذا القبيل فالعامل العاقل الذي يحب ان يذخر الفضل لهُ ولأسرتهِ من بعده لاحول لهُ وهو في منصة العمل عن اتباع واحدٍ من اثنين اي الاعتدال اذا كان معوجاً والا فالاعتزال بل لاحول لربِ المنصب الحاذق المحنك عن رعاية واحد من امرين اما انفاذ ما يراهُ لازماً واجباً مناسباً صالح وطنه واما مغادرة المنصب ولا سيما في مثل هذه الايام التي انتقل فيها طور الرعية من ادنى الى اعلى فامست وهي تزن الاشخاص واعمالهم بميزان الحكمة والنقد فتقضي عليهم القضاء الصارم وتدون لهم في تاريخ الزمن سطوراً تقرأُ بالامعان

وتحفظ بالاذهان

ولقد اتينا بلمحتناهذه مقدمة للمحة تالية نذكر فيها ما يهم القراء الخوض فيه من المباحث العائدة بالفائدة فقد واصلتنا نعم الجناب السلطاني بما قضى على الرعية بان تهب من رقدتها وتتمسك بوثيق عروة تابعيتها كما قضى على العمال بان تقوم بانفاذ مقاصده الشريفة وبأن يتلو كل منهم امره السامي القائل " ارفع علم الحق يتبعك اهله "

﴿ اياك والراي الفطير ﴾

(في ٢٤ جنايو سنة ١٨٩١)

كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول . ما ندم من استشار ولا شقي من استخار . وسئل بعض الحكماء اي الامور اشد تأييداً للعقل وايها اشد اضراراً به . فقال اشدها تأييداً له ثلثة اشياء اولها مشاورة العلماء وثانيها تجربة الامور وثالثها حسن التثبت . واشدها اضراراً به ثلثة اشياء ايضاً الاستبداد والتهاون والعجلة . وكان عبدالله بن وهب الراسبي يقول . اياكم والراي الفطير . واوصى ابن هبيرة ولده فقال . لا تكن اول مشير واياك والراي الفطير ولا تشرف على مستبد فان التماس موافقته لؤم والاستماع منه خيانة . وكان المهلب يقول . ان من البلية ان يكون الراي بيد من يملكه دون من يبصره

وقد اجمع الحكماء على ان الحكمة ابنة التجربة . وقال سحبان بن وائل .

العقل بالتجارب لان عقل الغريزة سلم الى عقل التجربة ٠ ولذلك قال علي بن ابي طالب رضوان الله عليه ٠ راي الشيخ خير من جلد الغلام والاشياء لا تتبين الا باضدادها وقال المتنبي

ونذيمهم وبهم عرفنا فضله ٭ وبضدها تتبين الاشياء

والحقيقة لا تدرك الا بالتمحيص فهي كالذهب ناره المناقضة وكوره البحث وبوتقته البرهان وقال ابن الوردي. وبحسن السبك قد ينفى الدغل: بل هي كالطيب لا تطيب انفاسه الا بالاحراق على حد قول الشاعر

تعدونني كالعنبر الورد انما ٭ تطيب لكم انفاسه حين يحرق

وقال الاخر

والطيب لا تعرف انفاسه ٭ الا اذا احرق بالنار

ذلك ما جرى عليه العلماء في ابحاثهم والسياسيون في مناهجهم والاداريون في احكامهم لانهم وجدوه المرقاة السليمة الى المعراج الاسمى والمنهج المستقيم الى المحجة البيضاء المثلى فطالما تساجل العلماء ولم يأنفوا من تلقي المعارضات والاعتراضات بل تقبلوها بالوجه الباش وقابلوا اربابها بالثناء المستطاب ثم جالوا وجادلوا وجابوا واجابوا وفتقوا ورتقوا ونقضوا وابرموا حتى حصحص لهم الحق فاتبعوه ٠ وطالما استطال السياسيون والاداريون في مضمار صحف الاخبار يثبتون ما عن لهم ايراده بايعاز واشارة ثم يقفون بالمرصاد مستنبعين وجوه الكلام في موضوعهم ومنتهجين احكام الطبع في توجيهات احكامهم ومقابلين تباين الاراء وتضاربها مقابلة تحدوها الحنكة

ويحتاطها التدقيق ويصونها التروي حتى اذا نصبوا الميزان ووضعوا في كلتا الكفتين الجيد والردي عدلوا الى الراجحة منها لدولهم عن المرجوحة فتبينوا من وراء البحث والتنقيب والمساجلة موطن الصواب وموقع الحق ووجهة المناسبة ونقطة الافادة فصرفوا اليها الخواطر وابرموا الحكم فيها وهم من الظفر على سفينة الامل في ميناء الامن وعلى صهوة الرجاء في ساحل الثقة

ولقد جال مدونو صحف الاخبار في هذا الميدان جولة الابطال الاجواد قياماً بامر الخدمة العامة الشريفة التي وقفوا النفس لها وعليها وظفروا من الراي العام برضاه فقدحوا زناد الفكرة في متابعة الابحاث يتوسعون في المواضيع ويتبحرون في احكامها ويتدبرون صوابها من خطائها وحقيقتها من مجازها فلا يثني عزمهم عن المكافحة ولا يغمض جفنهم عن المطالعة والسهر جرياً وراء غاية شريفة قضت بها الذمة وهي الخدمة الوطنية حتى يؤدوا حقاً لا يعفون من قضائه ولا فضل لهم وقد وفوا لانهم قضوا واجباً ولكن لا براء لهم اذا نكصوا واحجموا عن الوفاء

ولا يعزب عن احد ان الهيئة الاجتماعية قد قدرت شان الصحف قدرها فاصاخت سمعاً واذعنت مشورة واستوثقت بما تطالع فاضافت بذلك الي واجب الكتاب مواجب. ولم نقف هذه الفائدة عند حد الهيئة المحكومة بل تجاوزتهُ الى الهيئة الحاكمة ولا سيما المتمدنة منها فانها تبينت من الصحف الصادقة خدمة سامية لها كخدمتها الهيئة المحكومة فاجلتها تشريفاً وحرمة

واحلتها محلاً سنياً

وانّنا وقد راينا من حكومتنا ما راته منا لم نرَ بداً من ملازمة ما ساغ ورده وطاب رفده في سبيل الاحتفاء بالخطة التى سلكناها وامنا العثار فيها وهي القيام بخدمة المصلحة العامة اجابة لداعي الشرف ومطالب الضمير واوامر الراي العام ولدينا من وافر الشواهد ما يغني عن الاسهاب فلانتوخى في ما ندونه ارضاء زيد او ممالاة بكر او التزلف الى عمرو بل نقدم على المواضيع التي تستدعيها الوطنية اقدام الجندي الامين ونحوم حولها تحويم الطير على الفريسة حتى لا يفوتنا شيء من شواردها واوابدها وغثها وسمينها فنتخير بعد الروية خير فوائدها ونرفعه الى ذوي الشان ليروا فيه رايهم فان رغبوا اليه لصوابه شكرنا وقلنا. مع الخواطيء سهم صائب. وان رغبوا عنه لخطاه اعتذرنا وقلنا ما قالت العرب. ومن لك باخيك كله. وهكذا الحكم في ما اذا بدا لنا امر من جانب الهيئة الحاكمة او الحكومة

على اننا في الوجهين لا نرى في من قال ومن عمل بل في المقال او العمل لان الخدمة العامة تنظر الى النتائج فكل عمل تساق منه الفوائد لها وتنفى المضار به عنها مجدته ورحبت به ورطبت لسانها بالثناء على من اتاه ولو غريباً والعكس بالعكس. وذلك هو الشان المرعي لدى كرامة ارباب الكرامة وهذا هو الواجب المقضي ازاء شهامة أولي الشهامة فلا يسوء الكاتب الاطراء على عمل مفيد ولو ان عامله ليس من نصرائه ولا يسوء العامل التنديد بعمله غير المفيد ولو ان الكاتب ليس من خدمة ارائه واسرى

امياله واستئثاره

واذا امعنا في الحقائق وقفنا لدى قضاء عادل موداه ان الاغترار مبدا الانحطاط وعلته جهل قدر النفس وميزانه الوهم بالرضى الذاتي فلا اقل من ان يدفع هذا الوهم برقيب يشاهد ومشاهد يراقب فان ذلك يسوق بالاستقراء الى الابتعاد عن الاغترار وبالتالي عن الانحطاط وكثيراً ما خدم العلماء والاحرار الملوك والامراء والوزراء في رعاية التنبيه والايقاظ خدمة عادت عليهم وعلى الرعية بالخير والبركة ولولا خوف الملل لاتينا على ذلك بالف شاهد ولكنا نكتفي بالقليل فيه دليل على الكثير فمن ذلك ما قاله الاحنف بن قيس وقد شاوره معاوية في استخلافه يزيد فسكت عنه . فقال له مالك لا تقول يا احنف . فقال ان صدقناك اسخطناك وان كذبناك اسخطنا الله فسخط امير المومنين اهون علينا من سخط الله . ومن ذلك ما كتبه ابو الدرداء لمعاوية بشان امر واقع قال . اما بعد فانه من يلتمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله موؤنة الناس ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله الى الناس . ومن ذلك ما القاه الوليد على الزهري قال . يحدثوننا ان الله اذا استرعى عبداً رعيته كتب له الحسنات ولم يكتب السيئات قال ذلك باطل يا امير المومنين انبي خليفة اكرم على الله ام خليفة غير نبي . قال فان الله يقول لنبيه داود يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب فهذا وعيد يا امير المومنين

لنبي خايفة ثما ظنك بخليفة غير نبي · وامثال ذلك كثيرة وقد نشأ عنها كبج جماح الاهواء ودفع نوازل الشهوات والاطماع فاحتفظ العامل على مقامه وامن المرعي مصادرة الراعي

فالعاقل اذاً ا يهفوا الى المزيد من الحكمة والوقوف على الحقائق ولو التقط ذلك بذار الملاحظة عليه ليبرهن للعالم انهُ ذو حكمة فقد قال الحكماء لا يطلب الرجل حكمة الا بحكمة عنده · وقال الرسول صلى الله عليه وسلم الحكمة ضالة المؤمن ياخذها ممن سمعها ولا يبالي من اي وعاء خرجت وقال عليه الصلاة والسلام· لا تضعوا الحكمة عند غير اهلها فتظلموها ولا تمنعوها اهلها فتظلموهم وقالوا اذا وجدتم الحكمة مطروحة على السكك فخذوها ·وقال زياد · ايها الناس لا يمنعكم سوء ما تعلمون منا من ان تنتفعوا باحسن ما تسمعون منا · قال الشاعر

اعمل بعلمي وان قصرت في عملي ينفعك قولي ولا يضررك تقصيري

ذلك ولا مراء ما حدا بنا الى السير في المنهاج الواضح فلم نبخل بتدوين المواضيع الداخلية المفيدة وتسطير بعض الملاحظات نثبتها عن نية صادقة لغاية صالحة هي خدمة المصلحة العامة ويسرنا ان راينا ونرى غصن آمالنا مورقاً مثمراً فان ما سالناه والتمسناه في اللمحات والرسائل قد حققته همة حكومتنا وموعدنا لمحة ثانية نوضح فيها للقراء مجمل ما تحقق من مثل النظر في الغاء بعض العوائد وتعديل القراريط ومسالة البدلية العسكرية والنظر في التوالف والمتاخرات وغيرها

وقد وضح من مراقبة ماجريات الاحوال في مطالب السياسة والادارة ان عظام الرجال لا يرون الصواب الا من وراء التحري ولا يرتاحون الى ادراك الحقيقة الا من اقتفاء اثار المساجلة والمحاورة وهذا هو شأن عظام رجالنا فقد علموا ان السهم يراش قبل الرمي وان الكنائن تملأ قبل الرماية وان الامور تؤخذ بقوابلها وان المحاجزة قبل المناجزة والتقدم قبل النزول وجاء في امثال العرب · ياعاقد اذكر حلاً · وقال المنصور لولده المهدي· لا تبرم امراً حتى تفكر فيه فان فكرة العاقل مرآته تريه حسناته وسيئاته ولا بد من التأني في الراي والتثبت فيه .وكان عامر بن الظرب حكيم العرب يقول·دعوا الراي يغب حتى يختمر واياكم والراي الفطير

﴿ سمو عباس الثاني خديو مصر المعظم ﴾

(في ١٦ يناير سنة ١٨٩٢)

اذا سيدٌ منا خلا قام سيدٌ قوول لما قال الكرامُ فعولُ

لبيك يا مصر اجابة من رحيم ولله مما تفعل الاقدار ·ويالالعجب من اجتماع الاضداد ذلك تدبير العزيز الحكيم ولله الامر من قبل ومن بعد

حسبك يامصر فضل العناية فلو لم تتدارك من لطفها تيار ما انتابك من صروف الزمن بفقد فقيدك العزيز لاستسلمتِ الى غوائل القنوط ورواجم الياس وسئت مصيراً فابت تلك العناية الا ان تشدد يمناكِ عند شلل يسراك وان تعد للجراح خير المراهم وللداء انجع الدواء وللصبر افضل الاجر

فامسيت وقد جمعت الاضداد على اثر ما حدث من هول مصابٍ اسال قلب الجلمد واذاب انسان المآقي اذ لم تنظري جبلاً هوى حتى نظرت اشم استقام ولم ترى غصناً ذوى حتى وجدت آخر نضر ولم تتبيني نجماً وقع حتى رايت كوكباً طلع

لله ايُّ حياة انبعثت لنا　　يوم الخميس وبعد اي حمامِ

لم يبصر الاقوام شمساً قبلها　　غربت فلم تعقبهم بظلامِ

فكنتِ اذن بين اذن تسمع وفم يترنم وعين تدمع وثغر يتبسم

اما العيون فكانت وهي دامعة　　اما الثغور فكانت وهي تبتسم

فنزعت الى التسليم في ما مضى لامر من قضى وترحمت على من قضى كما نزعت الى السرور بمن اقبل الى حماك ليتولى صونكِ وحماكِ فشكرت فضل مولاكِ ولله الشكر في السراء والضراء انهُ الجواد الرحيم

رايت بالامس يامصر اكفهرار جوك ودامس ظلامك فاخلدت الى مضارب الاحزان والاتراح فانظري اليوم الى صفاء سمائك وساطع نورك فشدي الرحال الى سرادق المسرات والافراح . وان لك بالعزيز المصون اميرك عباس بقاءً لفقيدك المغفور لهُ فلم يفقد لك عضد ولا سند وان هذا الشبل من ذاك الاسد

فاليوم طلع في فلككِ اميرك العزيز بدراً منيراً يحييك فيحييكِ فاستقبليه بفؤاد المسرة واحتفي بهِ احتفاء الارض بوسمي المطر

اليوم قدم اليك اميرك من بين المحابر والدفاتر وفريق العلم والفضل

والمعرفة والنبل ليكون لهُ من تلك الذخائر الثمينة ما يتيح لهُ الانفاق على ربوعك في سبيل تدبير شؤونك وتنظيم امورك واصلاح اعمالك واقتفاء سنن الفقيد في كل مكرمة ومحمدة وكل مشروع وعمل يعود عليك بالخير العميم والفضل الوسيم سعياً وراء فضيلة الشرف وكرم الاخلاق والقيام بواجب التجلة والحرمة ومطالب كبراء الناس وامرائها فالعمل الخطير للرجل الخطير

اليوم قدم اليك اميرك الذي اعدهُ لك فقيدك طبيباً لدائك وبلسماً لجراحك وربيعاً لفصول ايامك وكهفاً لبائسك وملاذاً لخائفك وملجأً لطريدك وحصناً لمجدك ومعقلاً لعزك

اليوم قدم اليك اميرك في مظهر الشيوخ علماً وحكمة وهو في مظهر الشباب عمراً وسناً فلك فيه حلم الشيوخ وحكمتهم ورزانتهم كما لكِ فيهِ اقدام الشباب وهمتهم وعزيمتهم

فما كمال الفتى بالشيب في شعرٍ لكن كمال الفتى بالشيب في الخلقِ

اليوم قدم اليك اميرك يتراوح بين امرين جليلين وشانين خطيرين هما ذكر لحادث جلل واستعداد لجليل عمل ولكن لا تلتقين فيه ازاءهما الا الكفوء والاهل فهو في الاول صبور يعلم ان امام الطبيعة موقف الادراك . وفي الثاني كفيل يدرك ما وراء اقباله من مطالع الفوائد وطوالع المنافع .

فتقدمي اليهِ والرجاء معقود على لوائه ولائه . وثقي به والامل قرين الظفر في ظل لوائه

وحياك الله وبياك يا عزيزاً اعزك الله باخلاق طاهرة ومزايا فاخرة حتى اعدك عظيماً للقاء كل عظيم فلا ياخذك هول الحادث فمثلك من يلقى سهام طارئات الايام وطارقات الليالي بدرق العزيمة فالخطب ثقيل لكن على غير صبرك والحادث جلل لكن علي غير قدرك فالعهن ثقيل عند الجزوع والصخر خفيف عند الصبور ولا مردّ لما قضى الله فالتسليم للحي الباقي اجدى وافضل والرضى بالمقدور انفع واكمل ولا سيما وان التعزية قائمة بسلامتك وهي مكفولة برعاية صبرك فاغتنم عن نفسك اجر الصابر وعن الآل والرعية اجر الشاكر ونسال الله ان يسرك في ما يسوء ولا يسوؤك في ما يسر

اليك ايها الخديوي المعظم رعاية بيت كريم اساسهُ التقوى وعضدهُ الفضل ودعامتهُ المجد والشرف فهو قد سلمك مقاليدهُ واقفالهُ وكلاً اليك حفظهُ وصونهُ ولديك من ربة طهره وعفافه عبارة سخينة باردة عن ذكرى لمن مضى وسلوى بمن حضر وسيكون ما نشأ معك وفيك من مبادي الشرف الوجودي الطاهر دافعاً الى التلطف بسوال كفكفة الدمع فيجري عن حنان ولسان حالها يقول وكيف لا ابكي من ترك لي ابناً مثلك ولكن يجيبها لسان الحق بان كفكفي الدمع فالفقيد بسمو العباس حي ولا يبكى على حي

اليك ايها الامير العزيز آلاً يتوسم فيك خير المستقبل ومستقبل الخير ويفاخر بك امراء الناس واعاظمهم وتاييد مجد الاباء والجدود بنشاط

الشباب وحكمة الشيوخ وفضل العلم وقويم الاستعداد

اليك ايها الخديوي الكريم صون ذاك الانتماء الشريف المقدس الى موطن الخلافة العظمى والاستئناس بالتعطفات الشاهانية السنية فقد ربيت على هذه المبادىء السامية وشبت معك عاطفة التعلق والاستمساك بعروة التابعية الوثقى وبدا لك من ذاك المقام الاسمى ما انطبق على جليل تلك المبادي فلا تبرح مظهر تعطفات جلالة الخليفة وركناً لا يتزعزع من امنع اركان الدولة العلية الابدية القرار

اليك ايها الامير العظيم بلاداً انشأت في مهدها وترعرعت في سريرها وأشرب فؤادك حبها وطاب لديك منبتها وراق لعينيك مغرسها فتغرست فيك النجابة والنبل من يوم نيطت عنك التمائم وتوسمت فيك الخير والفضل من يوم اقدمت الى مساجلة العظماء في سبيل اغتنام العظائم فجنحت الى عشق صفاتك وادركت ما للوطن من المعاني المودعة في خزانة مقاصدك ولا غرو فالشيء الى معدنه يتقلقل والى عنصره يحن وانك لتحيي ما سنه فقيدها من القوانين واختطه من الخطط فلا تمحى اعلام من خلفته ولا تدرس اثار من اقتفيت مسالكه . فالمزية الوطنية تنتظر متونها شروح اعمالك لتعزز بها استمساك ابنائها وتبرهن لهم القول الصادع « ان حب الوطن من الايمان » ومن لهم بمن يتولى هذا الشان وقد علمته طبعاً واكتساباً وتخذته تراثاً واجتهاداً . فاجعل لها من بيض اياديك نيلاً يخترق سهولها وحزونها وكثبانها ووهادها صافي المودة عذب المشرب ليس بالشحيح فيظمي ولا بالطاغي

فيردي فيكون لنيلها الطبيعي من نيلك الادبي ما يكفل نيل نوالها ويدفع عن مناكبها اثقال احمالها

اليك ايها الخديوي المعظم رعية انست بك وعطفت اليك وادخرتك الى صروف الزمن وعقدت ولاءها على لوائك وغرست غرس امالها في حديقة اعمالك وبنت صرح رجائها على أُس الثقة فيك واقالت مطايا اوطارها في بحابح فضلك . فهي ترجو اليوم ان يبسق غرس الامل شهي الثمر وان لا يزعزع بنيان رجائها كرور الحوادث وان ترعى مطايا اوطارها ربيع الظفر والفوز

لك منها ذاك العامل في الخدمة ولا مراءَ انهُ سيكون من عزمك بين راجٍ لامانته وخائف لاساءته فلا يهرع الى بساط التدليس والرياء ليقوم بفائدة خاصة ويعبث بخدمة عامة لان امضاءَ امرك لا يحوم الا على هذا القول «اعتدل والا فاعتزل»

لك منها ايها المولى الاجل ذاك المحترف المعاني الصناعة ينظر الى رواج السوق الاجنبية فيها فينقبض ويدهُ عن التطاول قاصرة او مقصرة فامسى وهو ينتظر تمهيد العقبات بذرائع الحكمة ووسائل الارشاد تعزيزاً لاحد الموارد الثلثة الداعية الى العمران والاكتساب وحسبهُ من عين البصيرة لمحة ليشيد الحمد ويواصل الدعاءَ

لك منها ايها السيد السند ذاك المزارع المؤلف سوادها الاعظم والقائم بعمله وجناه شان الحكومة فهو لا يقعدهُ عن العمل تعب ولا يدفعهُ

عن مثابرة الحرث ملل ولا يحول دون قصده حائل من فواعل الطبيعة فقد تعود ان يحتمل حر الزمن وبرده ووافدات الاتعاب امل ان يجني ثمار غرسه وينضوي الى كنفه مع ذويه بالكفاف فهو يقف لديك موقف الملتمس الراجي لترمقه بالطرف الصادق وتحنو عليه حنو المرضع على الفطيم وتجعل قبل العين النظر في تخفيف اثقاله واحماله كي لا يدركه الكلال ولا يتولاه الهزال

بل اليك ايها الخديوي المعظم شعباً اميناً مقيماً على ودك . ناشراً لواء مدحك وحمدك . شديد الثقة فيك . مرتاحاً الى جليل مساعيك . يسالك على قدرك كما يرجو ان لا تسالهُ الا على قدره وشتان بين امره وامرك . فهو في ذلك يمثل ذاك الاعرابي وقد انشد لاحد الامراء متمثلاً

اعباس بين الحمد والاجر حاجتي فايهما تاتي فانت عمادُ

فقال لهُ سل حاجتك . قال مئة الف درهم قال اسرفت فاحططنا منها . قال حططتك الفاً . قال الأمير ما اعجب ما سالت وما حططت فقال لا يعجب الامير فقد سالتهُ على قدره وحططته على قدري

فلك ايها الامير المعظم هذا الشعب المبارك يفخر بان يرى نظراءك يتنازعون الفضل فاذا انتهوا اليك اقروا ويتنافسون المنازل فاذا بلغوك وقفوا دونك ولسان حالهم يردد قول البحتري

لا تنظرن الى العباس عن صغرٍ في السن وانظر الى المجد الذي شادا
ان النجوم نجوم الجو اصغرها في العين اكثرها في الجو اصعادا

فزادك الله و زادنا بك وفيك · وسدد قدمك الى الصواب و كال بالنجح مساعيك · ونشر لواء مجدك فوق الجوزاء · وادام النعمة خادمة ذروة مكارمك الشماء · ولا تفتأ عين العناية لك راعية وسحب الاقبال امامك ندية هامية · حتى يدوم علاؤنا بشفاعة معاليك · ويثابر القلب واللسان على حمد نعمة الله فيك اللهم امين

﴿ مستقبلنا ﴾

(في ١٠ فبراير سنة ١٨٩٢)

يترصدنا ابن الغرب ويرمقنا ابن الشرق ونحن بينهما نراوح بين العجب والادلال فلا نتهيب الترصد فنخلد الى الخمول ولا نحذر الرمق فنتراجع الى الخجل لان وثوقنا بما لدينا يقصي عنا الوهم من خوف الاول ويدني منا التثبيت بارضاء الثاني ففي الكنانة سهام وفي السويداء رجال. وقد بسق غرس الرجاء في حديقة فضل اميرنا ولا يلبث ان يمسي وريقاً مثمراً داني القطوف فيمدحنا الغربي ويغبطنا الشرقي وكل آتٍ قريب فالاهلة تكتمل بالتدريج

ولسنا نتكلف مع القاريء موءونة الاطاضة في العلل والبراهين لنكفل الوثوق والارتياح الى ما اوردنا بل يغنينا القليل من ذلك عن الكثير وشاهد الحس اقوى من شاهد التصور فلم نطو من عهد سمو اميرنا المعظم في ارتقاء الاريكة الخديوية الجليلة الا ايام الشهر حتى بدا لنا من المشاهد الداخلية والخارجية ما يقودنا الى موطن الذهول ومحجة الاستغراب

ويدفعنا الى الجزم باستئصال جذور الريبة والشك من سلامة مستقبلنا بل يدعونا حكم الطبع الى المثول بين يدي اميرنا ونحن على ترتيلنا آيات الدعاء بلسان الاخلاص نرتل ايات الاستبشار بلسان الالتماس

ايها الامير لمَ استبشرت الرعية بحسن مستقبلها وسلامة مصيرها فنشرت لواء الافراح يخفق في هضابها ووهادها وفاخرت الامصار بما كان وسيكون لها — لاخلاف في ان موضوع استبشارها مبني على ثقتها الوطيدة من وجه الاعتقاد بانك لجرحها الآسي ولعريها الكاسي ولضعيفها المواسي ولا غرابة في ما به وثقت واعتقدت اذ لا يصح لذلك الالين لا يلابسهُ ضعف وشدة لا يخامرها عنف وكفاءة تأخذ باطراف السياسة وتحيط بجذافيرها وهي موسودة الى نيرة وقادة وهمة بعيدة تجلوها ارادة صادقة وحزم صادع وثبات قويم · وقد قيضت العناية ان تكون انت الجامع لهذه الخلال الشريفة والصفات الجليلة فلك الفضل لالتئام هذه الصفات وللرعية المدح لادراكها هذا الشان ولك عليها حق الاخلاص ولها عليك حق الادلال

ولكن ما هو الشان الذي تروم الرعية الوصول اليه — تعلم ان مسائلها تنحصر في وجهتين خارجية وداخلية وهي مشوبة بمشاكل ومعضلات يراها الجزوع الضعيف معاقل وحصوناً تتعاصى على كرات المدافع ويراها الصبور القوي ضباباً لا يلبث ان تبدده عاصفة الارادة والحزم · فالرعية تروم في الاولى مسالة مبنية على حدود مؤيدة بالمعاهدات · وفي الثانية استقلالاً ادارياً وتخفيف اثقال

اما الاولى فتقابلها المعاهدات والمواثيق المربوطة بين تجارية وسياسية فلا وجه للدول مع المحافظة على المعاهدات لان تريد بنا شراً لان ارباب الدين من رعاياها امينون ياخذون اقساط ديونهم في اوقاتها فلا يضيع عليهم درهم ولا يتاخر دينار ولهم من وكلائهم في الصندوق ضمانة ثانية . واما الاعمال السياسية فغير معرضة لاخلال او مهددة بعبث وللوكلاء السياسيين شهادة ذلك . واذا تقرر هذا لم يكن لنا الا ما قام ويقوم به اميرنا من المحافظة على تبادل الحقوق فما دمنا نقوم بوفاء ما علينا فمن الواجب ان لا نترك شيئاً مما لنا وذلك ما لا يتغاضى عنه سمو الامير بعد ان علمنا شرف اخلاقه وسمو مداركه ووقوفه وهو تحت ظل سماء الحرية على احوال الاجانب وسياستهم واحكامهم وعلائقهم

اما مسائلنا الداخلية فشؤونها تتجه الى ثلثة مطالب اولها التابعية العثمانية وثانيها الاحتلال الاجنبي وثالثها الادارة العامة فاما التابعية فلا خلاف في وجوب تاييدها واحترامها وتوثيقها والمحافظة عليها بالنفس والنفيس فهي معقلنا وحصننا وسياجنا دينياً وسياسياً وليس لنا للدلالة على رعاية حرمتها افضل مما بدا لنا من امرها منذ تولى الاريكه سمو اميرنا فان ما اتاهُ جلالة الخليفة سلطاننا الاعظم من شواهد التعطف والالتفات وما قام به جناب الامير من قدر هذه التعطفات قدرها سرَّى غمة المصريين والعثمانيين وجلا لهم كؤوس المسرات والافراح فارتشفوا صفاءها فراتاً سائغاً شرابهُ ورتلوا آيي الثناء والدعاء

اجل ان ما تبودل الى الان من بشائر المخابرات بين مركز الخلافة العظمى ومقر الاريكة الخديوية السنية قد ايد للمصريين ولجميع العثمانيين سمو حكمة جلالة الخليفة وصدق اخلاص جناب الامير فالفرمان وشيك الحضور وزيارة الاستانة مقررة الانفاذ وسرور المصريين بالغ التمام

واما الاحتلال فالعسكري منه مسند الى سياسة جلالة السلطان على رعاية في سياسة سمو الامير ولو انهُ ظاهر الذيل من بدء نشاته ولكن الاحتلال الاداري متعلق با ارة الجناب الفخيم فهو ولي امر البلاد وهو ابن بجدتها وعالم بالمواجب وجميع الموظفين من وطنيين واجانب لا يخرجون عن كونهم موظفين مصريين على قوانين مسنونة وقواعد مقررة وللجناب الامير النظارة العليا عليهم فهو المسئول امام نفسه والوطن بشوءونهم فله اذاً ان يرى فيهم رايهُ المصيب ونظرهُ الصادق باعطاء كل ذي حق حقه وايقاف كل عند حدهِ المعين حتى لا يتوانى الواحد ولا يستبد الاخر

ولسنا نرى على افتراضنا سلامة نوايا المحتلين الا تمهيد السبل لتحقيق الاماني وهي تقليد المصريين الوظائف الخطيرة ليكونوا بها عمالاً فعلاً لا بمثابة آلات تدار بحركة خارجة فلا يلبثون ان يفقدوا حقوق الارادة في الادارة وبالاستقراء يرتاحون الى الخمول والسقوط مع المحافظة على نقد الراتب وبئس المصير

واما الادارة العامة فهي الموكول امرها الى حزم سمو الامير بتوجيه اهتمامه الى وجهيها بين شؤون العمال وشوون الرعية فهو يعلم حفظهُ الله ما

من الخطارة في الاعمال على العمال فالقوانين مسنونة والاوامر مقررة والقواعد محررة واللوائح مثبتة فصلاحها موقوف على انفاذها وصلاح الانفاذ موقوف علي صلاح المنفذ وصلاح المنفذ موقوف علي الحكمة في تخيره وانتقائه. ومن لنا بمن يقوم بذلك افضل من حكمة سمو اميرنا ومعرفته مقادير الرجال وفضل العلم والحرية

واما الرعية فشؤونها محصورة في امرين علم وسعة فالاول يمهد لها سبل التقدم الادبي فيرتفع شانها وتستقيم اعمالها وما الباب لذلك الا تكثير المدارس لتناول خير الفنون والادب واعداد النابغين منها وفيها للمناصب التي تصلح لهم ويصلحون لها. واما السعة فتنشأ اولاً عن تخفيف الضرائب واثقال الاتاوة وتوسيع نطاق الموارد الثلاثة اي الزراعة والتجارة والصناعة ولاشك ان كل ذلك ميسور تلقاء الثبات والعناية وسنأتي على بيانه بالاسهاب في لمحات متتابعة توصلاً الى المرام فالحقيقة بنت البحث وكل من سار على الدرب وصل

ذلك ايها الامير موضوع استبشار القطر بسلامة مستقبله فقد تبين ان الذرائع الناقلة به من لجة الاضطراب الى ساحل السكون والامن ميسورة لديه قريبة المنال سليمة من شوائب المطل وغوائل الاخلاف

بل كيف لا يكون للمصريين ذلك وانت المصري العثماني ديناً وسياسةً ووطناً وتابعية انت من اعز اركان السلطنة واحصن حصونها ومعاقلها. بل انت الذي ربيت في مهد الحرية والشرف والمجد وارتضعت افاويق العلوم

والفنون مع اتراب كرموا عنصراً وطابوا محتداً · بل انت الذي تنقلت كالبدر في سماء عروش السلاطين والملوك فكنت موضوع اجلالهم والتفاتهم · بل انت الشيخ حلماً والفتى سناً فلك من جوهر العقل بريق الكهرباء ومن نضارة الشباب بريق السيوف · بل انت الذي اشربت محبته قلوب رعيته فاخلصوا لك في السر والنجوى وعلقوا اما لهم بعروة فضلك الوثقى · وهم ينظرون بمزيد المسرة تلك التعطفات السلطانية وذاك الاخلاص الخديوي ويفخرون باساطيل تردوا خرى تصدر بين مقابلة ومودعة تقدم لك عن دولها وملوكها بلسان امرائها كتب التهاني والتبريك وتهاديك نياشين الفخر لان الشيء يتطاول الى مجانسه ويألف الى اليفه على نحو ما حكاه لسان تاريخنا تذكاراً لنيشان اللجيون دونور الاول المهدى من دولة فرنسا الفخيمة ونصه

اهدت فرنسا وسام اللاجيون دُنر	لغصن مجد بدوح الفخر مياس
خديو مصر الذي هيا الزمان له	مستقبلاً يوجب الادهاش للناس
به الوسام ازدهي فليزدهي ابداً	مذ ارخوه بفخر صدر عباس

١٣٠٩

فتولها بما حباك الله من الحكمة والله يتولاك بعنايته

﴿ من جرى في عنان امله ﴾
﴿ عثرت رجلهُ باجلهِ ﴾

(في ٢٨ مارس سنة ١٨٩٢)

جاء في امثالهم . اذا سلمت من الاسد فلا تطمع في صيده . وقال الشاعر

الم ترَ ان المرء تدوى يمينهُ فيقطعها عمداً ليسلم سائره

من ناموس الطبيعة ان الشي يتولد فينمو فيتم اطوار وجوده حتى ينقضي وهو سر مودع في الطبيعة يجري في هيولاها مجرى الدم في المفاصل فليس هنالك سكون ولا خمول بل حركة استتباعية دائمة على تفاوت في الآجال بين الطول والقصر من فرع واصل ووضع وحمل

واذا اجلنا لحاظ التنقيب والتنقير في هذه الحقائق تراجعنا الى الوثوق بسلامة مجراها واطراد مبداها فالفناها لمناسبتها الطبع ونحن على اكيد الاعتقاد ووطيد التصديق بان ماانعكس منها وعنها ان هو في كاس الحياة الا ملح اجاج يمجهُ الفم

كل ما خالف الطبيعة لم يحـ ـلُ لذوقٍ وانما مجهُ الفمْ

بل ليس للنفس فيه الا انفة وانكار ولو تبينت منهُ النفع ورحم الله القائل

وكلما عن منهج الطبع التوى تنكرهُ النفس ولو نفعاً جنى

اذن على رسلك ياعاذلاً غير عاذر وقد اجمع كل عاقل عادل على ان مسالتنا المصرية قد اخرجتها احكام السياسة الغائيــة والاغراض النفسية والاطماع الاشعبية من حظيرة تلك القاعدة ودائرة ذاك الناموس فقداولدتها الايام لتكون ابنة عام تتم فيه اطوار حياتهاعلى مبداءِ الطبع فاذا بهاقدتلبست اطوار غيرها مضيفة الى عمرها اعماراً بل اتتنا بالعجيب الغريب من دوران حركتها ذلك اننا لم نرَها متجاوزة اطوارها الاولى الى الثانية حتى رايناها رجعت الى حيث بدأَت فكأَني بها لزمت طور الحضانة فالعام الواحد والعشرة اعوام لديها سواءٌ

اذن من تراهُ يلوم السلطنة السنية على ما اتتهُ وتأْتيهِ في هذه المسالة على علم منهُ بخطارة مصر لديها ديناً وسياسة فالبلاد اسلامية تعترف في السر والنجوى بخلافة رب الخلافة جلالة السلطان الغازي عبد الحميد خان فهو عندها امير المومنين وخليفة رب العالمين وهي لديه قلب مملكته وطريق بيت الله الحرام والاثر الشريف من الافتتاح الجليل الذي اتاهُ ساكن الجنان السلطان سليم في حين لم تكن من يوم افتتحها عمرو بن العاص الا حكومة اسلامية بين موطن لخلافة او تابعة لخلافة . ثم هي لدى جلالته القسم الخطير المتم جسم المملكة سياسياً يقوم باسمه بتدبيره وترتيب احكامه وكيله الشرعي سمو الخديوي على ارتباط قويم وائتلاف امين يويد بهما الحفظ والصيانة فما مصر اذاً الا الاثر المأثور للسلطنة بل الجنة النضرة فيها وماسياجها الا السلطنة السنية وما جلالة السلطان الا المالك الآمر وللمالك ان يتصرف في ملكه

كما يشاء

وانا نقصد ان ناتي في عجالتنا هذه بالشروح الضافية عن ذلك فقد اودعنا في اللمحات السابقة ما يكفينا موءونة الافاضة فضلاً عما في الموضوع من الجلاء المغني عن البيان ولكنا نقصد الالماع الى ما شاب الماجريات الحديثة من وافدات الملل على اثر الانقلاب الاخير حتى حدا ذلك الى تضارب الظنون وتباين الاراء

قالوا انا لا نريد بمصر سوءًا وقد انحصرت غايتنا في توطيد امنها داخلاً وخارجاً وايصالها الى نجحة الاصلاح المرغوب بين سعة في المالية وراحة في الشوءون الادارية ومتى نلنا ذلك تركنا البلاد وشا[illegible] قلنا قد وثقنا بالغاية وصبرنا ثم راينا بموجب اقرار[illegible] فاكرموا بانجاز الوعد ولكم علينا جميل يعرف ويحفظ . قالوا ان الغاية لم تدرك كلها فالارتحال لم يئن وامرهُ لنا

تلك هي نقطة مسالتنا المركزية ولكنها ليست بالطارئة او الحديثة بل هي القديمة من عامين وثلاثة وخمسة وسبعة وفي ذلك عود طور الحضانة يتصل بها شرط ليس من اجل لجوابه وتشوبه علل توءذن الحكاة للسلطنة السنية بالسكوت عنها لان النتيجة مترتبة على مقدماتها وكيف تتحدى جانب الوثوق وهي ترى المانعة في منع حق لها كالمسائل الجارية في شان العقبة وملحقاتها وقد حالت انكلترا بينها وبين مصر فيها فاذا اعترض عليها قالت ان مصر لا تريد ذلك واذا اعترض على مصر برئت من هذه التبعة لقاء نفوذ

المحتلين فالمسالة على حد قوله

اذا ضاع شيءٌ بين بنت وامها فاحداهما ياصاح لا شك آخذه

واي عدل يتيح لامرءٍ ان يهب او يعطي ما ليس لهُ كما جرى في مصوع والسودان ثم يمنع عن ذي الحق نيل حقه كالجاري في امر العقبة بعد العلم بان السلطنة السنية لم تعبث قط في الامتيازات الممنوحة للقطر فاذا قيل ان انكلترا انما تروم ذلك خدمة لمصر قلنا ان خدمة مصر تقوم بالمحافظة على الرضى السلطاني الشريف وهو لا يريد لها الا الخير ولا يتمنى الا سلامها وحفظ امتيازاتها وصونها من الاطماع الخارجية وتاييد تابعيتها لمقام الخلافة السامي. واذا قيل ان ذلك انما ترومهُ انكلترا رعاية لمصلحتها. قلنا اذن قد انتفت الغاية التي اعربت عنها وكان للباب العالي حق الرفض للمقدمات مع انتباذ ما يسوق الى الاخلال والعبث. ومهما يكن من الامرين فليس ثم وجه للارتياب في مقاصد السلطنة السنية كما ان ليس ثم من وجه لفقده لدى مقاصد انكلترا واذا تبين ذلك حال الحق دون اللوم الموجه من ذوي المآرب والاغراض الى اجراءات الباب العالي في هذا الشان وغيره ولم يبق لانكلترا سبيل تعترض عليه به من كونه لا يستمسك بعروة الثقة بها والاعتماد على سلامة نياتها

ولسنا وقد بدا لنا من هذه الشؤون الخطيرة ما كشف القناع عن محيا الحقائق نتوقع لسلامة العاقبة الا حزم سمو خديوينا فهو بما اودع الله فيه من الروح الشريف يجلوهُ الذكاء والنباهة يقوى على حل المشاكل

ويزيل العقبات المعترضة دون الوصول الى المحجة فالقطر قد وكل امرهُ الى تدبيره على مبدا وثوقه بما شب فيه من التعلق بجوهر التابعية والارتياح الى رضى جلالة الخليفة مولانا السلطان الغازي عبد الحميد خان المعظم فضلاً عن طهارة ذيله من غوائل الايام الماضية وثبات جاشه في ما يبرمهُ من الامور لتوقيعها على حكم الحق والعدل ومن اتبع هذين كان الظافر دون مراءٍ ولم يكن من حجة للمناقض في شانه تمثلاً بما جرى مع عبدالله بن الزبير وذلك ان عمر رضي الله عنه مر بعصبة فيها عبدالله بن الزبير ففر افرادها من الطريق الا ابن الزبير فقال لهُ عمر. كيف لم تفر مع اصحابك. قال لم اجترم فاخافك ولم يكن بالطريق من ضيق فاوسع لك. وذلك سيكون لسان حال سمو الامير لمن يحول دون ما يقصد في هذا المنهاج الواضح ايده الله معززاً بالتابعية الشريفة ليظل مظهر التعطفات الشاهانية وحصناً حصيناً من معاقل السلطنة السنية بحوله وطوله

﴿ ما عملتم في ما علمتم فنعظكم في ما جهلتم ﴾
(في ٢ افريل سنة ١٨٩٢)

استقدم معاوية الاحنف بن قيس وشاورهُ في استخلافه يزيد فسكت عنهُ. فقال لهُ معاوية مالك لا تقول. اجاب ان صدقناك اسخطناك وان كذبناك اسخطنا الله فسخط امير المؤمنين اهون علينا من سخط الله. فقال لهُ صدقت

وارسل ابو جعفر الى سفيان الثوري فلما مثل بين يديه قال عظني ابا عبدالله . قال ما عملت في ما علمت فاعظك في ما جهلت . فلم يجد لهُ المنصور جواباً

نثر الكتاب ذوائب ابحاثهم في اطراف مسالتنا المصرية حتى احاطوا بجذافيرها ووضعوا كالكهم على وتينها فاذا تنسموا لها خبراً يعلق بها تسنموا غارب احكامه واذا لاح لهم بارق من سحب سياستها انتجعوا مهبط غيثه وهم على طرفي نقيض في حلها وابرامها حتى اذا اختلط حابلهم بنابلهم في حلبة القضاء تراجعوا الى الافتراق في التوجيه وسالوا السعة في المجال توصلاً الى الوقوف على ما يجهلون وانبرى من بينهم من مج اقلامهم نقس الغرض النافث السم فاطلقوا اليه اسير القدح والتنديد وصوبوا سهم الطعن واللوم على من ناصبهم في المدافعة عن الحق ولم يتمثلوا في ما اتوهُ الا بما وقع لابن هبيرة ذلك انهُ استقدم اليه الحسن وسالهُ . ما ترى في كتب تاتينا من عند يزيد بن عبد الملك فان انفذتها وافقت سخط الله وان لم انفذهـا خشيت على دمي . فقال لهُ الحسن . خف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله فان الله يمنعك من يزيد ولكن يزيد لا يمنعك من الله

ماذا قلنا وما سنقول — لم نتجاوز في ما قيل المحجة المثلى بل لم نكن الا المصيخين سمعاً لاجابة داعي الذمة والشرف والملبين لدعوة الحق لا تاخذنا فيه لومة اللائمين ولا نكلف القراء الا سبر ما يتلون بمسبار الحكمة والتاني وسنتلو لهم ما تلونا فان الحقيقة من البسائط التي لا تتجزا — وانا ان

الامن قد توطد في الداخل والخارج وان الحالة قد تحسنت باقرار المحتلين انفسهم وقد رتبت القواعد العامة للمسير بموجبها في المستقبل فهل ثمَّ ما يحول دون الجلاء وانجاز الوعود . قالوا ان ذلك لنا امرهُ ولم نتم حتى الساعة مهمتنا . . .

واذا رجعنا الى سابق تاريخ المسالة وقلبناه ظهراً لبطن وجدنا ان نغمة الطنبور لم تتغير وانسنا من وراء ذلك تبايناً في الافكار وتضارباً في الاراء ولكن لم نتبين خلافاً في المقصد والغاية وحدا بنا البحث الى استغراب وقائع المشكلة فقد قضوا بانهم لا يلامون ولا يسالون بما يعملون ولكن غيرهم يسال بما يعمل حتى بدا لنا في هذا الحين ما نسوق اليك بيانهُ

لم تظهر حوادث الانقلاب الاخير ولم تعمل السلطنة السنية بما تقضى عليها الحكمة والحق باجرائه حتى قامت قيامة ارباب الغرض واتجهت خواطرهم الى التنديد بسياستها واللوم على سلوكها في حين نسوا او تناسوا ما نقولوه عليها يوم استسلمت الى السكوت اعتضاداً بثقة الاوعاد فكانت لقاء اغراضهم غرضاً لسهام اطماعهم وتنديدهم فهي اذا استكانت وسكتت اعلنوا على رؤوس الملا ان ربة الامر وصاحبة البيت راضية بحلولنا قابلة بما نأتيه وبرهان ذلك سكوتها والسكوت رضى فتخطوا وتمطوا ذات اليمين وذات الشمال وتصرفوا تصرف المالك المستبد . واذا جهرت وجاهرت بالمطالبة بحقوقها تململوا وتلملموا ورموها بسوء التدبير واقاموا العقبات في منهاجها

القاهُ في اليم مكتوفاً وقال لهُ ... اياك اياك ان تبتل بالماء

فبماذا ترى تلام السلطنة السنية — تلام اذا قصرت عن المطالبة بما لها بل ان الدين والسياسة يامرانها بعدم الاغضاء عن انتهاز الفرص لنيل ما لها من الحقوق عملاً بقوله عليه السلام « من فتح لهُ باب خير فلينتهزهُ فانه لا يعلم متى يغلق دونه »

بل كيف تلام وهي قد صبرت وانست الى انجاز الوعود ثم كان ذلك سحابة صيف وزيارة ضيف . يقولون لها اننا نشيد باسمك ونحافظ على حقوقك . ولكنهم يفعلون غير ما يقولون فاذا سالت حقاً اعترضوا كما جرى في العقبة . واذا طالبت بوعد تمحلوا كما جرى في امر الجلاء . ولسان حالهم يناجيها ان لازمي الثقة بنا والسكوت عما نعمل

ولقد جرى حكمهم هذا مع الشعب المصري ايضاً فاذا سكن واثقاً بالوعود رموه بالجهل وعدم معرفته المطالبة بحقوقه ولكن هل لهم ان يسكتوا عنهُ اذا رام ان يطالب باجل حقوقه واسماها وافضلها واخطرها واتمها واكملها وهو التكرم بالجلاء عن بلاده . . .

لا تجهل العامة كما لا تجهل الخاصة ان جلالة مولانا السلطان الغازي عبد الحميد خان لا تؤذن لهُ الديانة ولا السياسة بالاغضاء . اما الاولى فلان السواد الاعظم من المصريين وهم المسلمون يخضعون لهُ خضوعاً دينياً بصفة كونه خليفة واما الثانية فلأن البلاد بلاده والارض ارضهُ ولم يفتتحها ساكن الجنان السلطان سليم بوقعة التل الكبير بل بوقائع التلال الكبار من ايدي غشمة مردة ولم يوطد بنيانها ساكن الجنان السلطان محمود الا بالابطال

العثمانية المصرية المعقود لواؤها على بسالة ساكن الجنان محمد على باشا ازومة العائلة الشريفة

ثم لا يجهل احد ما هو مقام مصر لدى السلطنة السنية ديناً وسياسة ايضاً فهي طريق بيت الله الحرام كما انها مفتاح جزيرة العرب ويعلم المحتلون حق العلم ان التقاليد الانكليزية قد حافظت على سلامة تلك القوة العثمانية الدينية والسياسية لان بها حفظ السلام العام ورعاية المعاهدات الرابطة الدول فاذا داخل الخلل تلك القوة لا سمح الله انتفت الغاية من وراء ذلك واضطرت السلطة السنية بحكم الطبع والحق الى تدارك الامر من قبيل المحافظة على الوجود وكان لها من ميل الشعب دافع ومهماز فقد وضح لكل ذي بصر وبصيرة ان الشعب المصري ما خلا من ختم الله على قلوبهم وقليل من هم يخضعون لجلالة السلطان خضوعين طبيعيين هما الخضوع الديني والخضوع السياسي فالري والمحاكم والسجون والشحنة والملح والجمارك وارتفاع اسعار القراطيس وما ضارعها انما هي شيء يذكر ويستحب مع الجلاء ولكنه لا يغني فتيلاً بدونه. وهل تروق دفيناً جودة الكفن

فمن العبث اذن ان نتطاول الى الاسهاب في ابحاث الميزانية ووفرة الاحتياطي منها وخطارة الدخل واقتصاد الخرج لاننا نلاحظ في ذلك شانين يكفياننا موءونة الاطناب اما الاول فعدم الاستغراب من الحاصل رعاية لشان انكلترا الدولة العظيمة الغنية لان ما اتته في مدة عشر سنين والامر امرها كان يمكن ان تاتيه دولة اقل منها جاهاً وعملاً وتمدناً فلا غرو اذا توقعنا

منها ما هو اسمى من ذلك لقاء سمو مقامها. واما الثاني فلأن المسالة السياسية خارجة عن هذه الحظيرة ولا عبرة بها ولا اعتبار لخطارتها تلقاء ما هو اجدى وافضل فالعاقل من يقي نفسه بماله ودينه بنفسه وقد اتخذ الباب العالي الى الان منهاج الحكمة فيما اتاهُ فلا لوم عليهِ ولا تثريب بل لم نرَهُ متبعاً في جميع ذلك الامثال الحكمة والسداد وتاييد العقل وقد سئل بعض الحكماء اي الامور اشد تاييداً للعقل وايها اشدها ضرراً بهِ . فقال اما الاولى فثلاثة . مشاورة العلماء وتجربة الامور وحسن التثبيت. واما الثانية فثلاثة ايضاً . الاستبداد والتهاون والعجلة وقد وجدنا ووجد كل خبير ان حكمة جلالة مولانا السلطان الاعظم اتخذت المطالب الاولى ديدناً لها بما تجلى عليها من الفيوضات الالهية

ذلك هو سر المسالة ونقطة دائرتها ومركز اثقالها ونحن على امل بمغادرة ساسة بريطانيا جانب الوعود والخروج الى جانب الانجاز فالبلاد كشهادة عمالها امينة من طاريء ومفاجيء بين غاد ورائح. وسمو العباس طاهر الذيل من فلتات الماضي وقوي الساعد لدفع غوائل المستقبل . والشعب المصري خاضع لاميره وطيد التابعية لسلطنته يتفانى في حب جلالة سلطانه. والدول واقفة بالمرصاد تروم احترام المواثيق وانجاز الوعود وجلالة السلطان ساهر مراقب لا يغضي ولا يتهاون. فالرجاء ان لا نستمع من المحتلين ثقوا بنا والزموا الصمت بل ان نستمع قولهم قد وعدنا ونحن الان ننجز حتى لا تناجيهم السلطنة بلسان حالها

شكونا فادنيتم اليكم سكوتنا   بتكرا كم للوعد في السر والنجوى
ولما تخذتم صمتنا حجة على   رضانا بما جئتم رجعنا الى الشكوى

﴿ المصريون والمتمصرون ﴾

(في ٤ مايو سنة ١٨٩٢)

قال ابو هريرة رضي الله عنهُ لما صار يوسف عليه السلام الى مصر واسترق بعد الحرية جزع جزعاً شديداً وجعل يبكي الليل والنهار على ابويه واخوته ووطنه وما ابتلي بهِ من الرق فاحيا ليلة من الليالي يدعو ربه تعالى وكان من دعائه ان قال " رب اخرجتني من احب البلاد اليَّ وفرقت بيني وبين اخوتي وابوي ووطني فاجعل لي ذلك خيراً وفرجاً ومخرجاً من حيث احتسب ومن حيث لا احتسب وحبب الي البلاد التي انا فيها وحببها الى كل من يدخلها وحببني الى اهلها وحببها لي ولا تمتني حتي تجمع بيني وبين ابوي واخوتي في يسر منك ونعمة وسرور تجمع لنا به خيري الدنيا والاخرة انك سميع الدعاء " فاتى يوسف عليهِ السلام في نومه فقيل لهُ ان الله تعالى قد استجاب لك دعاءك واعطاك مناك وورثك هذه البلاد وسلطانها وجمع اليك ابويك واخوتك واهل بيتك فطب نفساً واعلم ان الله تعالى لا يخلف وعدهُ . وبدعاء يوسف عليهِ السلام صارت مصر محبوبة لكل من دخلها فلا يكاد يخرج منها

ولما اجاب عمرو بن العاص سوءال عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ في

وصف مصر واتى في ما وصف بجامع الكلام ومنتهى البلاغة اختتم قوله بما معناه „ فبينما هي يا امير المومنين درة بيضاء اذا هي عنبرة سوداء فاذا هي زبرجدة خضراء فتعالى الله الفعال لما يشاء „

ذلك ما يقال عن هذا القطر السعيد ولدينا من شواهد العيان والحس ما يغني عن شواهد التصور والمقال· واما ما يقال عن سكانه فشعب رقيق الحواشي محبب الى الناس لطيف المعاشرة حليف المسايرة والمسامرة سهل الاخلاق طيب الاعراق خفيف الروح بسيم الثغر ندي الكف واسع النفس قريب المأخذ بعيد عن التشيع رحب المنزل مضياف اديب يحكي لسان حاله ما قاله سيف الدولة بن حمدان

منزلنا رحبٌ لمن زاره　　نحن سواءٌ فيه والطارق

وكل ما فيه حلال له　　الا الذي حرمه الخالقُ

هذه هي صفات مصر وابنها يعترف بحقيقتها في السر والنجوى كل ذي بصيرة وبصر ممن دنا منهـا فامتزج باهلها وممن نأى عنها فنقل اليه عنهم ثقات الرواية· فاي قلم اذن لا يسلم عنانه لبنان كل كاتب محقق وناقل مدقق ليطلق قيد التقريع واللوم على من تجاوز حد العدل والانصاف في ما رماهم به من جهل وتشيع ووسمهم به من سمات تبعد عنهم بعد العالم من الجهل والعدل من الظلم والصلاح من الفساد بل البسهم ثوباً لم يتشحوه وجردهم من خلال شريفة لم تكن الا لهم ولم يكونوا الا لها

على رسلكم يامن ارشتم السهم فطاش ماذا تبينتم من حركة الخواطر

المصرية على اثر حوادث لم تقع في حسبان ولم تدر في خلد احد حتى شددتم النكير وابحتم للسان بذاءة الكلام وللبراعة هراء المقال فاذا انتم والصدق عنكم طريد والاعتراف بالجميل شريد

متى وجدتم المصري ملتحفاً رداء التشيع في حين اجمع الجميع على انهُ توغل في الابتعاد عنهُ حتى كاد يحول بينهُ وبين ذويه

متى رأيتموه فظ الطباع شرس الاخلاق وهو الموصوف بكل لسان وشفة بكونه يسيل طبعهُ رقة واخلاقهُ لطفاً وانساً ولله من لين طبعه كلين هوائه ومائه

متى نظرتموه يكره النزيل ويستنكف من الهشاشة للضيف في حين هو القائل بلسان الشاعر

الله يعلم انهُ ما سرني شيءٌ كطارقة الضيوف النزل
مازلت بالترحيب حتى خلتني ضيفاً لهُ والضيف رب المنزل

متى لقيتموه يحول بين مساكنيه وبين ما يرومون عملاً وكسباً على كونه والله شهيد يدفع من سبيلهم كل حائل ويستنكف من ان يدرأ عن سبيله حائلاً

وفد اليه الغربي والشرقي فاقاما عنده على الرحب والسعة ووجدا فيه من حسن المعاملة ولين الطباع وانس المسامرة وشدة الالتئام وحسن الامتزاج ما انساهما الاهل والوطن وآنس بهما الى مسارح الخيرات وبحابح البركات وحدائق الاثراء وجنان الغنى وحلبات الرغد فانشداه بلسان الحال .

كأنهُ شجر الاترج طاب معاً حملاً ونشراً وطاب العودوالورق

وفداليه فرحب وحيياه فدعا وعاملاه فصدق واشتغلا فهدوافتقرا فتأثر وافتقر فلم يضجر واثريا فانشرح واثرى فلم يبطر وتعبا فاعان وتعب فلم يسال واستراحا فتهلل واستراح فشكر فقل للاثنين على مَ شددتم النكير ومن اباحه لكم من المتمصرين على اختلاف الاجناس

أَ مزارعون امتلكوا من سعة الارض ما يفيض عليهم بدر المال وهم يخدمون الفلاح بالاجرة وهو يخدمهم بعرق الجبين ويقوم بواجب العمل مع الصدق والامن

أَ تجار يتعاملون معهم وقد رأوا من حسن معاملتهم ما عاد عليهم بجزيل المنفعة وغزير الفائدة

املاك شادوا ويشيدون البيوت والمنازل يجاورونهم على سلم وامتزاج ولا يزاحمونهم في عمل وقد قعدوا عن طلب المساواة في فوائد الاصلاحات المرعية في احياء مجاوريهم

أَ محترفون يستخدمون حرفتهم ولا مزاحم لهم وباب الارتزاق مفتوح وليس للحسد طريق

اموظفون تقلدوا الوظائف فلم يبخسوهم حقوقهم ولم يانفوا من معاضدتهم والاختلاط معهم ولاجعلوا للتحاسد سبيلاً ليفسد بينهم وبين سواهم

فماذا يلومهم ارباب الغاية والغرض وكيف لا يخجلون من اطلاق التنديد وهل تناسوا قولهُ „ افعل بالناس ما تريد ان يفعل الناس بك “

وقال الشاعر

لا تعامل ما عشت غيرك الا　　　بالذي انت ترتضيهِ لنفسك

ذاك عين الصواب فالزمهُ فيما　　　تبتغيه في كل ابناءِ جنسك

قضت الايام على المصري بان تقودهُ السياسة الى مطلب من ورائه فقد حريته واماتتهُ ادبياً فشعر بثقل الوطأة وتنبه الى معرفة واجبه بتنبه خاطره فاعلن بلسانه عما يسترهُ فوءادهُ من انفته مما حدث فلم يرتكب فتنة ولم يحدث شغباً ولم يحدث هياجاً بل تدرع با لكمهِ وتزمل بالثبات وتدثر بالولاء وادرك ما لهُ وعليه وعرف الصواب من الخطا في حين هو اشد الشعوب استمساكاً بالسلام والوفاق والهدو والسكون والامن . فاين الذنب منهُ يا ترى

قال ويقول ان تابعيتي للسلطنة السنية مقدسة . فهل اذنب . قال اني وفيت الشكر لمن خدمني فليتكرم بانجاز وعوده . فهل اخطأ . قال اني اقيم على السلام كما تعودت ولي من سوابق ايامي [illegible] شهود . فهل كذب . قال اني ونزلائي واحد لهم ما لي وعليَّ ما عليهم فاين الذنب منهُ ياترى

فقل للائمين هل من ذي ملكٍ وتجارة وحرفة ووظيفة يجرأُ على الشكوى من المصريين وهو قد نزل بينهم فلقي الرحب والسعة ونال منهم ما يمنعهُ من ان يمسهم بسوءٍ فمن العار ان يستقي الانسان من بئر ويلقي فيها حجراً في حين قد آخاهم واخوهُ فكانوا سواءً في السراء والضراء

فعلى اي الامور اعتمدتم ايها اللائمون فشددتم النكير الان سماءهم

غطاوءكم وارضهم وطاوءكم وزراعتهم كساوءكم وماءهم رواوءكم وتجارتهم ثراوءكم. ام انكم تأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم. ام لانكم ترون القذى في اعين سواكم وتنسون الجسر الذي في اعينكم.

واني ارى في عينك الجذع معرضاً وتعجب ان ابصرت في عيني القذى

والا تعلمون ان الجميل يحيا بالذكر والنعمة تدوم بالشكر وصلة الحبل بعد القطع داعية الى الضعف

ويمكن وصل الحبل بعد انقطاعه ولكنهُ تبقى به عقدة الربط

اجل ان المتمصرين من غربيين وشرقيين قد لقي سوادهم الاعظم من المصريين ما لقي المصريون منهم بين الفة واخاء ومودة وولاء فالاولون ابعد الناس عن منافرة المصريين واقربهم الى الائتلاف بهم والاتحاد معهم . والمصريون اقرب الى مساكنيهم من حبل الوريد وابعد الناس عن مهاجرتهم

فقل لمن تعود بذاءة اللسان ان المصريين لا يرون عما تعودوا بديلاً فهم لا يجنحون الا الى الالفة ولا ينعطفون الا الى مسالمة الناس والمحافظة على الاداب وحسن المعاملة وطيب الموءانسة وتمكين ربط المودة في سبيل معاملاتهم وسلوكهم وان لهم في سبيل سياستهم خطة لا يحولون عن اتباعها والمسير بموجبها

ذلك انهم مصريون عثمانيون يخضعون لجلالة خليفتهم وسلطانهم ويسالون الله ان يوءيد عظمتهُ ويوطد سلطنته. ويجعل لواءهُ رفيق النصر

اليف الفتح والفخر . كما انهم يخضعون لسمو اميرهم عباس الثاني الحصن الحصين من معاقل السلطنة السنية . والسيف الصقيل الذي خباهُ الزمن لطوارق الايام والليالي فهم قد وكلوا امرهم الى حزمه . وسلموا مقاليد احكامهم الى شديد عضده وحديد عزمه . واخلصوا لهُ في السر والعلن . وسألوا الله ان يديمهُ تاجاً على مفرق الزمن

﴿ سياستنا ﴾

(في ٧ مايو سنة ١٨٩٢)

اخبر الثعالبي قال . استشهد محمد بن الفرات ايام وزارته علي بن عيسى صاحبه بغير حق فلم يشهد له فلما عاد الى بيته كتب عيسى اليه ,, لا تلمني على نكوصي عن نصرتك شهادة زور فانه لا اتفاق على نفاق ولا وفاء لذي مين واختلاق . واحر بمن تعدى الحق في مسرتك اذا رضي ان يتعدى الباطل في مساءتك اذا غضب ,, وقد اشار ابو الطيب المتنبي الى هذا المعنى بقوله

لقد اباحك غشاً في معاملة   من كنت منه بغير الصدق تنتفع

وقال الحكيم . لا وفاء لمن لا دين لهُ ولا دين لمن لا وفاء لهُ وقال الشاعر

ولا تقرب الامر الحرام فانهُ   حلاوتهُ تفنى ويبقى مريرها

واي حرام اثقل على المناكب لفظاً والافئدة معنى واسمج في الباصرة

شكلاً وفي البصيرة تصوراً من ارتكاب ما يستنزل الشرف من ذروة العز الى حضيض الذل بيد الاغراض الساقطة · ويدفن ضرة الضمير ذات الشعاع في ثرى الحطة ببنان الغايات السافلة · ويقود الذمة من مراعي الكرامة والوفاء الى مسارح الاهانة والغدر · فمحكمة الانسان دينه وشرفه وذمته وهي تساله الحرية والوفاء والصدق وما وراءها الا خير الجزاء

ترقب جزا الحسنى اذا كنت محسناً

ولا تخش من سوءٍ اذا كنت لاتسي

ولقد مر علينا ردح من الدهر ونحن نلبي داعي الذمة قياماً بواجب الشرف ووفاءً لحق الوطنية ولم يفتنا ما سنه العدل والقانون من قواعد الخدمة العامة التي يقتضيها شرف الجرائد وتقضي برعايتها صحف الاخبار فنهجنا السبيل الامين نطأ شوك قتاد الاغراض بقدم الهمة والثبات وندرأ طارئات الاستبداد بدرق الحرية وندفع حائلات الاكاذيب بعامل الصدق وقد رقمنا على نسيج لواء الولاء سلطنة سنية · تابعية عثمانية · مصر للمصريين · راي عام ،، وانظر تشاهد ذلك خافقاً في ذروة الاهرام

قلنا ونقول ان عزة السلطنة السنية برعاية سيدها ومولاها جلالة السلطان عبد الحميد خان الاعظم قد ضمنت للعثمانيين سلامتهم وشرفهم وفجرت لهم بعصا العزيمة من صفا الثبات ينابيع الخيرات والبركات وفتحت لابنائهم ابواب المعرفة والفضل وانارت اذهانهم بنبراس الحكمة والرشاد فالعثمانيون على اختلاف العنصر والمذهب واحد في الوطنية · واحد في القانون

واحد في الخضوع التام لجلالة سلطانهم لا يدينون الا لهُ ولا يسالون الاطول بقائه وتايد سلطنته وتايد مملكتهِ واستيلاء السلام على رعيته — تلك هي سياستنا

قلنا ونقول ان مصر جنة سياجها التابعية العثمانية فلا تصان الا بها ولا تحفظ الا برعايتها ولا تدوم لها امتيازاتها الابدوام ولائها وان السلطنة جسم ومصر قلبها وان سمو اميرها العباس من اعز حصونها وامنع معاقلها وان سكانها لا يعرفون بالولاية عليهم الا جلالة سلطانهم وسمو اميرهم وكيله الشرعي—تلك هي سياستنا

قلنا ونقول ان مصر يابي العدل والقانون والسياسة والنظام ان تكون لغير ابنائها او تساس بسياسة خارجية او تدار بقوة اجنبية او تضغط ببوادر الغايات—تلك هي سياستنا

قلنا ونقول ان في الكنانة نبالاً وفي السويداء رجالاً فالراي العام قد نشأ وترعرع ودرج وشب فسقط قول من رمى المصريين بالجهل والخمول وجردهم من دثار الوفاق والاتحاد وابعد عنهم جلائل التضافر والتكاتف والوئام فالايام قد برهنت لمن دنا ونأى على وجود هذا الراي الذي غادر الشقاق والثورات والفتن والف الوفاق والسلام ولزم الدعة والصبر وتدارك احكامه وتلافى امرهُ وعرف الحالي من العاطل والصديق من العدو— تلك هي سياستنا

وشهد الله وقد غيرت الحوادث من ايام الفتنة السابقة مجاري السياسة

المصرية انّنا في استنباعنا منهجنا لم نتحول قط عن المبدا الشريف الذي فصلنا مجمله في صدر اللمحة ولن نتحول عنه ابداً في ما ياتي فعلامَ يطاولنا المناقضون وحتامَ يناصبنا المارقون المخادعون فهم في وادٍ ونحن في وادٍ وان ربك لبالمرصاد

اتخذنا الخدمة العامة شعارنا ونظرنا في سبيلها الى الاعمال لا الى العمال لان ضالتنا ننشدها لدى العمل لا لدى العامل فكنا حيث نقابل الحسنة نمدحها ونطارح فاعلها اطيب الثناء وحيث نقابل السيئة ننبذها ونلاحظ على من اتاها دون تهيب المنصب او رعاية الغرض الساقط . ولم يغالبنا الهوى على السداد والوفاء كما لم تتغلب علينا الخدمة الخاصة على الخدمة العامة

نقول والله شهيد على قولنا والسواد الاعظم من القراء يصدق على ما نقول اننا طالما استبقنا الكثيرين من ارباب المناصب الى خدمتهم في السراء والضراء ولكن في سبيل المصلحة العامة ولم يهلنا زئير الاستبداد وزفير الاثرة بل اخلصنا في السر والنجوى ولكن الخدمة العامة وجهتنا والشرف الوطني شعارنا حتى اذا راينا ما يخالف ويعاكس اتجهنا الى مبداءِ التحذير فالانذار وانقلبنا الي التنديد لدى فوت الغاية . ومن امكنهُ ان يخدم سواه في ضرائه ويقيم على ولائه امكنهُ من باب اولى ان يترضاه في سرائه ولا تفوته بركات نعمائهِ ولا سيما واننا قد عرفنا اولئك قبل غيرنا ولنا من خدمتنا لهم ما يعظم في جنب خدمتهم لنا

نتج اذن اننا لا نرصد في مرصد الاصلاح الا نيرات الاعمال لا نجوم

العمال ولا نبخس حق من احسن ولا واجب من اساء وسواءٌ علينا رضي او غضب فالخدمة العامة تفضل الخاصة والحق احق ان يتبع والجرائدليست ابواق اطراء ولا منافخ اهواء والحكيم الحاذق يحترم الملاحظة عليهِ ويأْنف من توجيه الاطراءاليه

فاليكم يا من انكرتم هذه السياسة واحتقرتموها وعملتم على معاكستها واطلقتم لاقلامكم عنان التنديد ولالسنتكم عنان التقريع وعداً جميلاً بالاستمرار على ما اكرهكم فالوفاء من شيم الكرام والاقرار بالجميل دين على الحر والشكر لقاح النعمة والمعروف يحييه الذكر

بل اتقوا الله يامن رايتم في بذاءة اللسان ارضاء لغاياتكم السافلة واغراضكم الخبيثة فكيف تتمتعون بخيرات بلاد اكثر من تمتع ابنائها بها وانتم على امرها ناقمون . كيف تمرحون في بجابحها وانتم باحكامها هازئون كيف تنفقون عن سعة وقد استغنيتم من خيرها وانتم لها كارهون كيف تنقدون رواتبكم الفادحة من فضل فلاحها وانتم لها محتقرون . كيف تبنون القصور المزخرفة وتقيمون الجنان النضرة وانتم بابنائها ساخرون

قد اتجرتم او احترفتم او خدمتم او اغتنيتم فسقياً لكم ومرحباً بكم واهلاً بلقائكم ودعاءً بنجاحكم وطلباً لدوام هنائكم فاذا لم تنفعوا فلا تضروا واذا لم تكونوا معنا فلا تكونوا علينا واذا لم تمدحوا فلا تذموا واذا لم تفعلوا فاسكتوا

اتقوا الله يامن شددتم النكير على سياسة الاهرام وانتم لقاء السواد الاعظم بمثابة العدد المعدول اذا اجزنا لهُ الشواذ لا يتجاوز العاشر في المنقول

فالاهرام ياكل من خبز المصريين ويشرب من ماء المصريين وينفق من فضل المصريين ويعيش في ظل المصريين ويتهادى بين ايدي المصريين ويخدم لفيف المصريين فلا يخون المصريين ولا يداس على المصريين ولا يحقر المصريين ولا يذمهم ويقبح امورهم ويرميهم بالجهل والغباوة ويحبب اليهم اماتة هممهم واسقاط نهضتهم وخسارة وطنهم وحل عقال تابعيتهم وفقد حريتهم وزوال استقلالهم وامتيازاتهم وابعادهم عن سلطتهم

فاتقوا الله يامن تاكلون من خبزهم وتشربون من مائهم وتعيشون في رحابهم فكيف تقابلونهم بالعكس ثم تشمخون وترتكبون المنكر ببذاءة اللسان وبيع مذمتهم بدراهمهم كبيعكم بلادهم بدنانيرهم

اتقوا الله يامن شددتم النكير على سياسة الاهرام وانتم واحد من كل وقطرة من بحر فسياسة الاهرام لا تتحول وهي سياسة سبعة ملايين من المصريين ونحو اربعين مليوناً من العثمانيين بل هي سياسة جميع المسلمين والعثمانيين وكل غربي وانكليزي يعرف شرف الوطنية ومبداها ومعادها

هي سياسة اعز بها الوطن جلالة السلطان الغازي الاعظم عبد الحميد خان الذي اذهل العالم بباهر حكمته وحفظ الوطن بذراع قوته وساعد عزيمته

بل هي سياسة سمو اميرنا العباس المعظم . الذي ادهش العالم بسداد رايه ونير ذكائه وقويم رشاده فوثق به المصريون ثقة تكفل لهم نيل المرام وتزيدهم اخلاصاً لسموه فلا يفتأون يذكرون فضله على مر الايام

هي سياسة موضوعها " سلطنة سنية . تابعية عثمانية . مصر للمصريين .
" راي عام " تلك هي سياسة الاهرام والسلام

﴿ ضالة المصري مسالته ﴾

(في ١٨ يونيو سنة ١٨٩٢)

وهي آخر ما انشأه رحمه الله

يرمي المصري العثماني نبل النظر ولكن غرضه مسالته . ويمتطي صهوة جياد الفكر ولكن مضماره مسالته . فهي ضالته ينشدها اناء الليل واطراف النهار لا يلوي عنها عنان المذاكرة ولا يسكن من امرها جاش التمني حتى يقضي الله امراً كان مفعولاً

فاذا نطقت فانت اول منطقي   واذا سكت فانت في اضماري

لدينا احتلالان عسكري ومدني وعمرهما عشرة اعوام فالاول قيل بشانه ساعة ظهوره في الوجود ما قيل به في الساعة الاخيرة من العام العاشر فان الوتر لم ينقطع والنغمة لم تتغير والله اعلم متى ينقطع ومتى تتغير . واما الثاني فبدأ بالاحاد وتدرج الى العشرات وادرك المئات ويظهر انه سريع النمو يتطالُ من كوى الرغبة والاقدام الى مضمار الالوف

وقد قالوا ان الغاية من الاحتلال الاول توطيد الامن وقد توطد وشكرنا لهم سعيهم فاذا انكر عليهم منكر الحصول على هذه البغية سلقوه

بالسنة حداد وقالوا كيف يعمى العالمون عن الضياء . واذا اعترف بالوصول الى ذلك سراً وعلناً وسأل انجاز الوعود بناءً على ادراك الغاية قالوا ومن تراهُ يأمن طارئات السودان ومقاصد اوربا

وقالوا ان الغاية من الاحتلال المدني تهذيب المصريين وتعليمهم وتعويدهم على النافع والمفيد فلهم منا مدرسة اختبار واساتذة مبرزون في الادارة والسياسة فمتى نبغوا في ذلك انتقلوا من صفوف التلامذة الى صفوف الاساتذة فاحللناهم محلنا وتولوا شؤُون ادارتهم وترحلنا عنهم بسلام

على رسلكم ولا لوم فما مثلنا في الاول الا ما جاءَ في احدى مقامات مجمع البحرين من ان احدهم اكترى ناقة واعلن ان لا يسلم صاحبها زمامها حتى يسلمهُ اجرتها فامسكها ولم يسلم الاجرة ولما تقاضيا على المكتري " لقد جعلت تسليم الاجرة موعداً لتسليم الزمام فانا لا اسلمهُ الاجرة والسلام " وما دامت اوربا على ما نعلم والسودان على ما نرى كان للمحتلين ان يقولوا " اننا قد جعلنا محو اوربا والسودان من عالم الوجود موعداً لانجلائنا عن مصر وهما لا تزالان فيه فلا ننجلي والسلام "

واما الثاني فقياسهُ العكس دون الطرد لاننا اذا اتبعنا الخطة التي رسموها كدعواهم وجب ان نرى كل ما طوينا عاماً زيادة في عدد اساتذتنا وبالاستقراء على مر اعوام معدودة يقوم اساتذتنا مقامهم ولكن نجد المسالة على عكس الوضع فاننا كلما طوينا مراحل الاعوام شاهدنا الزيادة في عدد اساتذتهم ولم نشاهد تلميذاً منا استحق ان يترفع الى مقام استاذ واليك من عمل الري

برهاناً يقاس غيره عليه فقد أُتي بالمفتشين من الهند واطالوا اجل استخدامهم الى سبعة اعوام ليتلمذوا مهندسينا فكانت النتيجة ان مرت الاعوام السبعة واستقال بعضهم من الخدمة فاعتيض عنهم من ابناء جلدتهم وزادوا في عددهم ولم يستحق احد من جميع مهندسينا ان يترفع الى منصب التفتيش السامي

ولا يجهل القراء الكرام ان المهندس من رجالنا تخرج باديء بدء في مدارس الحكومة وتلقف فن الهندسة من رجالها فصرف فيه عشرة اعوام ثم انتقل الى مدارس هذا الفن في اوربا فاقام مثل ذلك على الاقل ثم عاد الى مصر وخدم في سلكه عشرة اعوام فاكثر ثم تتلمذ للانكليز نحو عشرة اعوام فكانني به صرف في ادراك فن واحد نيفاً واربعين سنة بين علم وعمل بحيث ادركه بالاضافة الى باقي سنيه طور الهرم. فاذا كانت هذه حالته ولم يأهل لان يعين بوظيفة مفتش في عمل الري فلا سبيل اذا لان يصل الى درجة استاذ الا اذا ادرك عمر نوح عليه السلام وذلك متعذر فالاحتلال المدني اذن دائم

وقد اعلن ضواطرة المحتلين ان الانجلاء يتم متى عمت المعارف ابناء القطر ووفر عدد الاساتذة منهم وقد وضح لك مما ابناه عن حالة رجال خاصتنا الذين تجردوا لادراك فنون الادارة انهم مع انفاق العمر في سبيلها لم يستحق احد منهم الى الآن ان يتشرف بلقب استاذ فمتى يترفع الى هذه الرتبة رجال العامة ومتى يكون اجل هذا الاحتلال...

ذلك كان ولا يزال موضوع سياستنا في شان الاحتلالين ننطق به عن لسان الحقيقة ونترجم عن خاطر المصري العثماني ونتراجع الى ابحاثه بمزيد الوضوح والجلاء وهو ضالة المصري وغاية رغائبه

على ان التدثر بشعار هذه الرغائب الصادقة قد ضغط على ارباب الاغراض والغايات والمارقين والخائنين ولم يروا لديهم الا واحداً من اثنين اما الاقرار وهو لا يناسبهم واما الاستتار بثوب الرياء وهو يشف عما تحته. تملصوا من حرج الموقف بتحويل الموضوع الي غير مجراه بان اخذوا يطنبون في النعم والخيرات والبركات والفوائد والمنافع والسعادة والرخاء والراحة التي تنعم بها القطر المصري بعلة هذا الاحتلال ثم يقابلون بين فوائده بمصر وفوائد احتلال فرنسا او غيرها من الدول في قطر اخر وهم يحسبون انهم يصلون بذلك الي محجة غاياتهم ونقطة دائرة اغراضهم ولكن ساءوا فألاً وحبطوا سعياً فلا يقال للصبح يا ليل وللقمر ياسهيل والمصري العثماني اسمى من ان يؤخذ بمثل هذه الترهات

نراهم وقد اكثروا من تكرار الاعلان بغزارة فوائد الاحتلال ومقابلته بسواه انهم يقصدون اعظام قدر انكلترا واستمالة المصريين الى الرضى بالحالة وتنفيرهم من شعوب اخرى ولكن فاتهم انهم بذلك حطوا اولاً من قدر انكلترا وثانياً من قدر المصريين وثالثاً من قدر الاسرة المحمدية العلوية ثم خرجوا عن الموضوع فأزيح الستار عن اغراضهم وسوء غاياتهم

اما اولاً فلأن ما اتاهُ الانكليز بمرور عشرة اعوام في بلاد كمصر

دافرة الموارد غزيرة الخيرات والامر فيها لهم ادارة وسياسة والدرهم لديهم صبر و كثبان لا يكبر عليهم بل هو ماتى من ينحط عنهم ادبياً ومادياً فاكبار ما يجب ان ياتوا باعظم منه تحقير وقال الشاعر

أَلم ترَ ان السيف يصغر قدره   اذا قيل ان السيف امضا من العصا

واما ثانياً فلأَن تكرار ذلك يسوق الى الظن بان المصريين لا يعلمون جميل المحسن ولا يدركون ما يحدث ولكن لا يصفهم بالعقوق والجهل الا العاق الجاهل

واما ثالثاً فلأَن سكان المشارق والمغارب يشهدون ويعترفون بان مصر لم تدخل في طور الحياة الشريفة السامية الا من عهد المغفور له محمد علي اصل الاسرة الكريمة وبظل السلطنة السنية فهو الذي جدد شبابها بعد الهرم وبث فيها الروح النفيس وشاد معاهدها وايد حضارتها وشرف مقامها ورتب احكامها ونظم ادارتها ورتب شوونها

بل اي عمل مفيد لم يقدم عليه واي مطلب نافع لم يوجده واي اثر حميد لم يعضده بل اي مشروع سام اتاه الانكليز وغيرهم ولم يكن هو الشارع بهِ ثم عارضه الاجل دون اتمامه بل اي امير من فروعهلم يتاثر خطاه ويطأُ وطاته وينهج منهجه بحيث ادركت مصر في نصف قرن من العظمة والثروة والفضل ما لم تدركه اسمى الممالك الاوربية في قرن وقرون

واما الخروج عن الموضوع فلان المسالة لا يقصد فيها ترجيح دولة على اخرى للاحتلال بل الغاية رفع الاحتلال فلا نسال جلاء الانكليز ليحل

الفرنسويون اوالروسيون اوسواهم محلهم بل نسال اعادة المياه الى مجاريها من ازدهاء السلطة العثمانية المسلمة حقوقها لسمو الخديوي الوكيل الشرعي عن جلالة السلطان في مصر فلو كان الفرنسويون او غيرهم مكان الانكليز لقابلناهم بالمثل وكل سياسة تعضد سياستنا العثمانية المصرية نجلها ونحترمها سوائ كان عمالها فرنسويين او المانيين او صينيين او يابانيين لان الغاية واحدة هي التخلص من الاحتلال الاجنبي كيف كانت صبغته

فيستفاد مما ذكرنا ان لم يكن للمحتلين وانصارهم الا حجة واحدة هي اتهامهم المصريين بانهم لم يبلغوا سن البلوغ فلا مندوحة عن اقامة اوصياء عليهم فهم الاوصياء فاذا تجرأوا على هذا القول طالبناهم بالحجة والبرهان وانى لهم ذلك وهب اننا اغضينا عن المطالبة فللمصريين من جلالة سلطانهم وسمو اميرهم وصيان شرعيان. واذا تراجعنا الى سابقة الحوادث وجدنا ان المحتلين انفسهم اعترفوا على رؤوس الاشهاد بعظمة ما اتاه المغفور له توفيق في العامين الاولين من حكمه من الاصلاح والفضل وان ما اتوه في مدته من هذا القبيل كان له الفضل الاول فيه فاذا علم ذلك وكان لهم حسن الظن بنا فلماذا لم يتركوه وشانه واثقين بحسن مقاصده وفائزين بطيب الثناء وحفظ جميلهم لذى السلطنة العلية ومصر

بل ما حجتهم الان في تاجيل الجلاء اذا كانوا يرومونه كما يقولون اليس امامهم امير طاهر الذيل شريف الغاية سامي المدارك بعيد الهمة حليف الادب نصير العلم قويم المبادي بل فليقولوا لنا اي امير من امراء المغرب ولد

ودرج وترعرع وشب وتعلم وتنقل وشاهد وربي على مبادئ اجل وافضل مما ربي عليها سمو اميرنا عباس المعظم فلماذا لا ينجزون وعودهم

اجل اننا بما نذكره لا نبخس المحتلين اشياءهم ولا ننكر مهارتهم وتبريزهم في السياسة بل كيف ننكر مهارتهم في حين لم تكن شكوانا الا بعلة تلك المهارة فانها بالاضافة الى القوة اوصلتهم الى ما نرى فاستلموا المصالح تباعاً مع الدعوى بان المصريين هم الذين سالوهم ذلك ولكنا نسالهم وقد وصلوا الى غاية سياستهم في سبيل مصلحتهم ان ترفق عدالتهم بحقوقنا فلا يروق للمصري الاثراء وغيره لدى فقد استقلاله المصون بتابعيته العثمانية حتى لا يضطر الى ترديد قولنا "كانت البرد يقضي وهو يبتسم"

تلك هي سياسة الاهرام سراً وعلناً لفظاً ومعنى اصلاً وفرعاً وتلك هي سياسة الراى العام العثماني المصري فليتق الله اولئك المخربون الخائنون وليعتبروا سكوتنا فضلاً دون التحرش المستمر فقد رضي القتيل فليرض القاتل فليكف القاتل بالاغضاء عنه دون ان يسال له دية قتيله

بل يكفي الاهرام شرفاً انه خادم الراي المصري العثماني العام وتلك نعوته في فم كل عثماني ومصري تتناقله ايديهم من اكباد مصر ومن اطرافها بل يقبل عليه المشتركون ويسالون بلسان البرق وسبيل البريد اصداره اليهم عفواً دون ضغط رجل شحنة او اكراه رجل ادارة او تحسين ضواطرة وانصار غايات

بل يكفيه ان ابواب الممالك المحروسة الشاهانية مفتوحة له يدخلها

بامن وسلام ورغبة وشوق وهو فيها الجريدة العثمانية الوطنية المرعية الحرمة الصادقة اللهجة

بل يكفيه شرفاً ليس فوقه شرف انه بانعام خاص لم ينله سواه ترسل اعداده مشرفة الى السدة السلطانية باسم من تشرف بوجوده . وحبي الفضل والكرم والجود بجوده . جلالة مولانا السلطان الغازي عبد الحميد خان الاعظم

ذلك ولا مراء هو خير جزاء لخدمتنا الوطنية الصادقة التي نثابر عليها ونبذل النفس والنفيس في سبيلها ونشترك مع كل عثماني مصري ذي شرف ودين في ترديد آيات الدعاء بحفظ جلالة مولانا السلطان الاعظم وتاييد ملكه وتوطيد سلطنته وحفظ سمو وكيله الشرعي خديوينا عباس المعظم وتوفيق اعماله ودوام اقباله

فداما دوام الدهر كهف لاهله وهذا دعاء للبرية شاملُ

[library stamp]

